رضا قاسمي
الرواية الأعلى مبيعاً في إيران
الأوركسترا الليليّة
رواية
ترجمة : غسان حمدان

الأوركسترا الليلية

رضا قاسمي

تحويل و تنسيق

د / حازم مسعود

الفصل الأول: لا يا غابيك، ليس هنا!

١

حين تعتم أيام المرء
سيفعل كل ما لم يكن يفعله

كنت مثل حصـــان أحس مســـبقًا بوقوع مصـــيبة. أرأيت كيف تتوســـع حدقتاه والخوف الذي يلتف في جمجمته، ينفخه في منخريه المرتعشين؟ أرأيت كيف يصهل ويضرب حوافره على الأرض؟

لا، أنا أيضًا لم أر. ولكن لو كنت حصانًا لأبديت خوفي هكذا. (من يعلم؟ ثمة الكثير من الجواري، والكوسا أيضًا!)(١) ربما في يوم ما قد تضـــع أمٌ من بين أمهاتي كرســيًّا تحت بطن دابة ما كي تلتقط نطفتي، في تلك الزاوية الخالية والرطبة لحظيرة طينية وفي ذلك الظلام والضياء الممزوج برائحة الحشيش وفضلات الدواب، وتلفها في لفافة من الحسرة والرجاء.

ولكنني لم أصـــهل ولم أضـــرب الأرض بحافري. هبطت الســـلالم ســـريعا، كل ســـلالم عدة بقفزة واحدة، وضـــغطت على زر الطابق الرابع.

كنت أعلم أن ماتيلد صاحبة الدار العجوز ستأتي الآن وستفحصني أولا من وراء ثقب الباب. ثم عندما تفتح الباب تضع نظرة عينيها اللتين تبدوان قد خرجتا من الحدقتين من هول حادثة مخيفة، على عيني وتنتظر بابتســـامة عطوفة لأقول لماذا جئت. وعندما أقول للمرة الثانية عشـرة خلال سـنة من إقامتي (وطبعًا هذه المرة كذبًا) أتيت أدفع أجرة غرفتي، سـوف تسـألني للمرة الثانية عشـرة أين أسكن، وعلي أن أشير للمرة الثانية عشرة إلى الطابق الأخير. وبعد البحث القصير في الممر الفارغ والمهجور لذكرياتها بسبب عدم ثقتها بذاكرتها – أو بسبب ثقتها بكلبها الضخم الأسود "غابيك" – تتنحى قليلا لتفتح الطريق وأدخل الممر المعتم بعض الشيء للشقة ومرة أخرى يُجرح كبريائي إذ لماذا لا تتذكرني؛ وثم أواسي نفسي أنه حين يتوقف الزمان لشخص ما لن يكون هناك أي مكان، ولو صـغير، في ذهنه لي أو لغيري. كل ما هو موجود خيوط من رماد الاضـطراب تفرعت بين ثنايا أعصـاب الجمجمة، ودفنت الزمن في قبضـتها. أرأيت هيروشـيما بعد الانفجار؟ ومشـهد السـاعات الذائبة في ظل عقربة الثواني؟ لا، لا ينبغي أن تجرح كبريائي. إن ماتيلد، هذه العقربة الذائبة على المدار الساكن والأبدي للثواني، لم تعد شـخصًـا حيًّا وإنما صـورة شـاحبة لامرأة تبدو وكأنها في ذلك اليوم المضـبب والماطر لشـهر نيسـان سـنة ألف وتسـعمائة وثلاثة وأربعين عندما فتحت عدسـة الكاميرا لتسـجلها، صـهلت من هول الصدمة وضربت الأرض بحوافرها!

ضـــغطت على جرس الباب بســـبابتي وانتظرت واقفًا. كان صـــوت كمان ميلوش يلتف في الدرابزين مدويًا وملتهبًا وهو يأتي من الطابق السادس ويحرك الدخان الذي كان ينبعث من غرفة فريدون في الجو مثل غيمة مرتعشة.

- عسى أن تكون في البيت!

وبينما كنت أضغط بإصبعي على الجرس شعرت أن شيئًا ما بدأ ينمو في داخلي. شيئًا مثل غول بشع ومخيف. استأت من نفسي. اللعنة على هذا الحظ! ألا يمكن أن يرق قلب إريك فرانســوا شــميت على بروفت؟ ألا يمكن أن يكون بروفت ذلك الشــاب المحجوب الذي كان في البداية؟

أنا الذي عشت كل عمري في النصف الشرقي بتوقيت النصف الغربي للكرة الأرضية، عندما يحل الليل كان الطابق السادس لهذا المبنى يصـبح كوكبًا صـغيرًا بالنسـبة لي وكنت قبطانه الوحيد ولم يكن هناك من يعترض على هذا الأمر. وفي ما مضـى في هذه المدينة، التي يصـبح كل شـيء فيها خاضـعًا لطاعة سـلطة الجدران الصـامتة من بعد السـاعة العاشـرة ليلًا، لم يكن يسـمح لأحد أن يسحب سلسلة سيفون المرحاض، وأينما أحل كانوا يعترضون بشدة ما يجعلني أحزم حقائبي وأنتقل إلى مكان آخر.

هنا خلال هذه السـنة كنت أتمتع بهدوء، بحيث كنت أقول لنفسـي إن هذه الغرفة الصـغيرة في العلية بكل مسـاوئها أفضـل مكان في العالم بالنسبة لشخص لديه اثنتا عشرة ساعة اختلاف في التوقيت مع الآخرين.

يا للأسف، فإن هذا الهدوء لم يدم طويلًا، وفجأة في كوكبي الصغير ظهر شخص غريب، غيّر مصير كل شيء.

المرة الأولى التي رأيته فيها كانت في مساء شهر أغسطس.

عادة كنت أنام في السـاعة السـابعة صـباحًا وأترك السـرير في الثانية بعد الظهر. وفي ذلك اليوم أيضًـا، ومع أنه مرت سـاعات منذ أيقظني صـخب غريب ومفاجئ كان يأتي من الغرفة المجاورة، ولكنني مع كل فضـولي لم أسـتطع أن أترك السـرير قبل السـاعة المقررة. بمجرد أن فتحت باب الغرفة انصـــعقت، يبدو وكأن انقلابًا قد وقع. كان باب الغرفة المجاورة مفتوحًا خلافًا للعادة وكانت تأتي أصـــوات غريبة من الدرابزين. كنت أنظر حائرًا ومندهشًـــا إلى الأثاث والأشـــياء التي كانت مرمية هنا وهناك، وإلى الغبار والأوسـاخ التي كانت تغطي أرضـية الممر والسـطح الخشـبي للسـلالم، فظهر. كان طويلا تقريبًا ومفتول العضـلات. حياني واجتاز الممر المؤدي إلى اليسار مسرعًا ودخل الغرفة المجاورة.

منذ أن اتجهت إلى المطبخ وقع نظري على كتابة على الجدار: «اليوم وبسبب الاضطرار ستتجول قطتي في الممر. أقدم اعتذاري مقدمًا».
أدرت رأسي إلى نهاية الممر لا إراديا؛ خرج الرجل الغريب من الغرفة المجاورة بطاولة خشبية كبيرة وكانت إحدى قوائمها مكسورة، وهبط السلالم مسرعًا.
نزعت اللافتة عن الجدار ودخلت مطبخي الذي كان إلى يمين بيت السلالم.
قُرع جرس كنيسة "سانت بول" أربع مرات وشعرت أن كوكبًا صغيرًا قد خرج من مداره.

٢

لم أكن نائمًا، كنت متأكدا من ذلك. لأن السكين التي غرزت في ظهري كنت أشعر بها، وكذلك رائحة زناخة الدم الجاف الذي كان يغطي جسمي كله. إذًا من أين كان يأتي هذا الضياء المائل؟
كان يشبه "غاري كوبر" بشكل غريب، الفرق الوحيد كان في شعره الذي كان خلافا لشعر غاري كوبر طويلًا وغير مرتب. والضياء المائل الذي كان يضيء نصف وجهه الأيمن، كان يعطيه شكلًا مبهما حيث كان يذكرني لا إراديًّا بأفلام ما بعد الانطباعية الألمانية خاصة "فاوست" للمخرج مورناو.
الشيء الذي كان قد حيرني وجود النور المائل نفسه، لو كان خارجًا من هذا الفضاء الضيق والمظلم الذي كنت فيه، إذًا لماذا كان النور يسطع عليه بشكل جانبي، إذا كان داخل هذا الفضاء نفسه؟
وهذا الأمر لا يتماشى مع أي منطق، فهل يمكن أن يكون لفضاء واحد حجمان متفاوتان؟ ناهيك عن أن يكون أحدهما مضيئًا والآخر مظلمًا؟
كان فاوست مورناو يراجع دفترًا يحمله معه بصمت. وقد مر عليه الآن وقت وهو متوقف على موضوع ما.
كانت أنفاسي محبوسة في صدري وكنت أنتظر أن يمطرني بالأسئلة في أي لحظة. ولكن يبدو أنه لم يكن يفكر بذلك في هذا الوقت العاجل، أو كانت هذه خدعة ما لكسر مقاومتي. لندع جانبًا السؤال عن اعتقاده أنني أنوي المقاومة.
في الحقيقة قررت أن أبوح بكل شيء، لم يكن بيدي أن يشحب وجهي لأقل تعنيف، وأن أبلل سروالي بصفعة واحدة. هكذا ربوني أن أخاف، من كل شيء، من الكبار خشية أن ينزعجوا، ومن الصغار خشية أن نحطم فؤادهم، من الأصدقاء خشية أن يتأذوا ويتركوني وحيدًا، ومن الأعداء خشية أن يثوروا ويلاحقوني.
كان أحدهم يقول:لا تفش السر مع كلٍ
فإني رأيت الكثير من الجواسيس المنادمين
وكان أحدهم يقول: لا تغتب كثيرًا عند الجدران
فربما خلفها ثمة آذان تستمع
وكان أحدهم يقول: لا تضرب الحجر على جدار الحصن
فربما ينهال عليك الكثير من الحجر
كان أحدهم يقول: لا تبن بيتًا في طريق السيل، يا صاح
كان أحدهم يقول: لا تنظر إلى رصعة الذقن فهي مجرد مصيدة تغوي
كان أحدهم يقول: لا تصعب الأمور على نفسك، يا سيد...
لأريحكم، كانت كلها نصائح، كلها كانت نواهي؛ ولم يقل أحدهم أيضًا ماذا يجب أن أفعل. كما أنه خرج من لسان أحدهم قائلا: «مادام يمكنك أن تفعل شيئا افعله – قبل أن تعجز عن فعل أي شيء». ولكنه في النهاية لم يقل ماذا أفعل. وهكذا كبرت ولم أتعلم شيئًا، من ضمنها المقاومة.
كان فاوست مورناو ما يزال مستغرقا في الدفتر. جعلني الصمت والانتظار أفقد صبري. وفجأة قفز شيء كالنابض حيث كان محبوسًا منذ مدة طويلة خلف أسناني المطبقة: «لقد قالوا لي أنكم شخصان!».
تراكم صمت مخيف على الصمت السابق، وفجأة شعرت أن فجوة عميقة فتحت بيننا. كنت أبحث عن جملة مناسبة تقيني من السقوط في هذه الفجوة المخيفة التي كانت تصبح أعمق وأعمق بسرعة رهيبة. ولكن كانت كلها نصائح تقوم بالاستعراض أمامي. كنت أرى فم أبي يتحرك من فرط العصبية، فم أمي، فم عماتي، فم معلمي، فم مديري. كدتُ أوشك على السقوط على رأسي فانتشر صوت هادئ في الجو فتوقفت الفجوة عن التعمق.
- يا للمسكين!
نظر فاوست مورناو الذي كان حتى هذه اللحظة مستغرقًا في أمره، إلى جانبه (لم يكن بجانبه أحد ولكنه نظر على نحو يجعل المرء ينظر إلى جانبه فقط). ضم الدفتر إلى صدره وقال: «تبدو وكأن لديك أمرًا خاصًا».

مع أنني لم أكن شخصا من دون موضوع قط، ولكن مهما فكرت في تلك اللحظة أي موضوع كان لدي في حياتي، لم أفلح في تذكر شيء. وفجأة ومن دون أي سبب خاص انتابتني حالة التغنج: «أقلت أمرًا؟».

- نعم، أمر.

وأضاف صوت مألوف بلهجة ناعمة من جانبه: «أمرًا خاصًا!».

انتابني الخوف، لقد أدركت أشياء عدة معًا، وفي الوقت نفسه: أولًا أن فاوست مورناو ليس وحده وأن ثمة شخصًا بجانبه، وثانيًا أن الصديق الذي بجانبه لا يُرى، ثالثًا أن ما هو القصد من (أمر خاص). قلت: «عذرا، أنت أيهما؟».

قال الذي بجانبه: «أي أيهما؟».

أضاف فاوست مورناو: «اجب على الأسئلة فقط، هذا فحسب!».

قلت: «أنظر، يا سيد...»

قال الذي بجانبه: «سمِّ كما تشاء، لا يهم!».

قلت: «أنا لا أراك، لذلك أنا مضطر إلى أن ألتفت إليه. وهو إذا في أي وقت...».

قال الذي بجانبه: «لا يهم، فنحن نعمل معًا».

قلت: «انظر، يا سيد...».

- لماذا تضحك؟

كان هذا فاوست مورناو من يخاطبني مزمجرًا. نقيت صوتي وقلت متلعثمًا: «في الحقيقة، ليس خافيًا عليكما ولكن...».

- ولكن ماذا؟

- ولكن... أسميكما...

- ما مشكلة اسمينا؟

كنت معتادًا أن أبدأ مواضيعي باستخدام اسم مخاطبي. وهذا الاسم كان مثل إبرة تجر خلفها خيوط أفكاري وتنظمها أو ترتبها. ولكن السؤال الذي طرح عليّ جعلني أعزف عن مساري تمامًا لذلك وبدلًا من أن أتابع كلامي السابق، قلتُ: «أنتما تعرفان لغتنا!».

ألقى فاوست مورناو نظرة على دفتره: «الذهن المنحرف! لقد كتبتُ ذلك هنا أيضًا».

قلت: «يصاب المرء بالدهشة حقًا، فأنت طالما تملك جميع الإمكانات... فلماذا من أجل هذا العمل يجب أن تكون شخصين؟».

لم أكن أريد أن ينتهي الأمر إلى هذا الوضـــع، ولكن ما باليد حيلة. كنت واقعا في منحدر حاد ولا يمكن بأي طريقة إنقاذ نفســي من السقوط المحتم.

حدّق فاوست مورناو مباشرة في عيني: «يعيش خمسة مليارات ونصف المليار من الناس على الأرض، باعتقادك كم شخص منهم يتكلمون بلغة الهراء التي تفوهت بها؟ ثلاثون مليون؟ خمسون مليون؟ ستون مليون؟».

أردت أن أقول أولًا إن لغتنا ليست بهراء فأستاذ جمال زاده(٢) قال عنها إنها سكر، ثانيًا فإن البعض اختلفوا ولكنهم لم يقولوا عنها هراء بل قالوا حبة سكر. ناهيك عن أنها لغة تنتقل أيضًا، يعني ذُكر في رواية أنها وصلت إلى البنغال أيضًا... ولكنني أدركت بأنني جرحت كبرياء فاوست مورناو على نحو سيء، لذا كان علي أن أنهي الأمر على نحو ما كي لا يزداد الوضع سوءًا. خطرت جملة مناسبة على بالي يمكنها أن تحسن الوضع إلى حدٍ ما. نقيت صوتي: «انظر، يا سيد...»، ولكنني لم أتمكن من إنهاء كلامي. كانت بقعة ابتسامة تتسع على وجهي سريعًا. أي مرض هذا أن أبدأ جملتي وهذه العبارة الخطيرة؟

إن صمتي حتى إذا كسر على نحو مناسب فهو في الوقت ذاته باعث على الفضيحة، وأن المعرفة بالأمر هذا جعلتني من دون سلاح أمام الانفجار المهيب الذي كان في الطريق. وفجأة كُســر قفل الأســنان وجعل طنين ضــحكة طويلة العمود الموقر للضــوء المائل مرتعشًا.

٣

لماذا الآن؟ بالضـــبط بعد شـــهر ويومين من ليلة الحادثة؟ لماذا لم آتِ تلك الليلة ذاتها؟ كان يمكن إخبار الشـــرطة على الأقل؟ يا للارتباك! كنتُ سمحت أن يصعد سم الحادث إلى الأعلى شيئًا فشيئًا، والآن، إذ يتملكني الذعر، وصلت إلى عتبة الجنون. طويت السـلالم كل عدة درجات بقفزة واحدة حتى أقول لمالكة شـقتي أمرًا كان علي أن أقوله في ليلة الحادث ذاتها، لئلا أوصـل الأمر إلى هذا الحد.

وأنا أضـغط على زر الجرس كنت أعد نفسـي حتى هذه المرة – على الأقل هذه المرة – عندما أواجه أخيرًا إريك فرانسـوا شـميت العجوز بعد أسـئلة وأجوبة ماتيلد المكررة والمملة عند عتبة الباب، ألّا أسـمح بأن يقع بصـري على أنفه الغريب ذاك. لأنني كنت قد دفعت الإيجار قبل كم يوم، وهذه المرة ينبغي أن أدخر طاقتي كلها من أجل أمرٍ تنفيذه غير ممكن كلما كان الوقت يمر. كان علي أن أصرخ في أذني العجوز الثقيلتين بأمرٍ حتى همسه يمكن أن يودي بحياتي.

- عسى أن يكونا ذهبا في رحلة؟

ليتني كنت خبأت في ذلك اليوم، في اليوم ذاته الذي رأيتُ فيه بروفت للمرة الأولى في بيت السـلالم، بعينيه المدورتين والجاحظتين تلكما اللتان كانتا مخيفتين مثل عيني بومة وتسطعان طاقة من أعماقهما وتخرق الجو مثل سكينة حادة. كان يصعد ويهبط الطوابق الست بنفس واحد، وفي كل مرة كان ينزل بطاولة، أريكة أو قطعة من الأثاث المغبرة والمستعملة.
كان نقل الأثاث هذا، والذي كان يحدث خلافا للمسار الاعتيادي، يدل بوضوح على الكارثة التي في الطريق. ولكنني كنت حائرا في أمر آخر. مائة مرة... مائة وواحد وعشرين مرة... مائة واثنان وعشرين مرة...
من أين كانت تأتي هذه الطاقة كلها؟ فأنا عندما كنت أصعد بيدين فارغتين كنت أصعد من الطبق الثالث إلى الأعلى وأنا أسعل باستمرار. كانت ركبتاي ترتعشان وتمتلئ عيناي بالدم في حين أنه كان... مائة وثلاث وعشرين مرة... مائة وأربعة وعشرين مرة... ولم يكن يلهث حتى!
في الساعة الثامنة مساء انتهى من إخلاء غرفة كانت ملتصقة بغرفتي تمامًا. فهمت هذا من انقطاع صخب ذهابه وإيابه، ومن الرائحة الحادة للبصل المقلي التي كانت تخرج من ثنايا الباب.
كيف استطاع أن يقنع العجوز صاحب الشقة؟ هذه الغرفة التي كانت مستودع البناية ويحوم حولها عدد من الذئاب، كيف أمكنه أن يخرجها من قبضة صاحب الشقة؟
يعني...
اليوم الذي جاء فيه بروفت إلى طابقنا، أصابنا أنا والسيد الحزن. كانت غرفتي ملتصقة بغرفته وغرفة السيد في المقابل تمامًا. لم يكن ظاهره يوحي بأنه مثلنا من أهل الليل، فذلك الوجه البارز وسكناته تلك لم يكن من قماشنا ومن قماش المنفيين والمهاجرين الموجودين هنا. كان يمكنه أن يكون رقيبًا في الجيش، معماريًّا أو
ميكانيكيًّا، شيئًا من هذا القبيل. لو كان من أولئك الذين ينامون مبكرا ويستيقظون في الصباح الباكر، فسوف يسبب المشاكل. وعند ذلك إذا لم يكن يضرب الحائط بقبضته كالفرنسيين فسوف ينفد صبره أخيرًا بعد يوم أو يومين من التحمل ويحتج.
ولكن لم يكن هناك داع لقلقي أنا والسيد، فاتضح لنا سريعًا أنه مثلنا من أهل الليل، وفهمنا هذا من النور الذي كان ينبعث من أسفل باب غرفته، ومن صوت سعاله بين الفينة والأخرى. وما كان يفعله إنسان مثله في تلك الغرفة المغلقة، من آناء الليل حتى أطراف الصباح، لهو لغز آخر. على كلٍ فهو كان إنسانًا مرموزًا حيث كان يخرج من غرفته بندرة، وحين يخرج كان إما لقضاء حاجته أو لجلب الماء من مغسل المرحاض الذي كان النقطة الوحيدة المشتركة بين سكان هذا الكوكب النائي؛ أي الطابق السادس للبناية التي تعود إلى إريك فرانسوا شميت، الطبيب ذو التسعة والثمانين عاما الذي كان يقيم في الطابق الرابع وقضى جل عمره يكافح من أجل بناء عالم عادل، وانتهى أخيرًا بخيبة أمل، فكان يقنع نفسه أن يطبق العالم المثالي ذلك في دائرة السلطة الوحيدة المتبقية له؛ أي البناية ذات الطوابق الست إياها التي تسير الآن، في الرائحة الحادة والمقرفة للبصل المقلي، نحو الكارثة شيئًا فشيئًا.

٤

كان فاوست مورناو يتصفح دفتره بصمت مطلق؛ صمت أكثر هولًا من المشاجرة. كنت أعلم أنني سوف أبتلي بأمر ما جراء هذا الحديث عديم الفائدة وتلك الضحكات السخيفة.
في الليلة التي جلسنا فيها على تلك الصفة الطينية في قرية "دوست محمد" التي كان يحيط بها الليل والصحراء من كل الاتجاهات، أمسك بهرام نارويي ربابته وأخذ يغني بلغة لم أفهم شيئًا منها فصرت كمن أصابه المس والحمَّى، وشعرت بخمول النجوم الليلية أني ميت وأن هذا الصوت السحري ليس من ذلك الموسيقار البلوشي بل صوت منكر ونكير وهما يقرآن صحيفة أعمالي بشفقة ولطف. أحدهما بالغناء والآخر بالكلام. كنت لا أرى أي عتاب، ولا حتى أي لوم. رأيتهما يحصيان أخطائي لكن ليس من منطلق التأنيب. وكان مشفقًا إن أنزلق فقد أنزلق وليس من باب الدناءة إذا وقع خطأ، ذهب ولكن ليس باختياره.
كم أصبح عاتقي خفيفًا في تلك الليلة. كنت أقول: «إذًا، فهل هذا هو الموت؟ أهذه الحلاوة المترصدة إياها(٣)؟».
آه، يا للتصور الذي نسجته لهذه الليلة وما كانت نهاية الأمر! كان برنارد محقًا أن يتهمني بتلك الرسالة المريرة والمليئة بالعتاب بـ»تهديم الذات»؛ كم أنهك ذاك المسكين نفسه ليجد الفرصة ليخلصني من هذه الحياة الجحيمية. أنى له أن يعرف أنني سأقوم فجأة بركل حظي في اللحظة التي لا ينبغي أن أفعل فيها ذلك. ليته يعفو عني. كيف أستطيع أن أقول له لم يكن ذنبي، وأن هذه الركلات يوجهها شخص آخر إلي. ليس هذا فحسب وإنما أوجه هذه الركلات إلى شخص آخر أيضًا. كيف أقول لبرنارد أن الرجل البدوي يعيش دائمًا مع ظله حيث أينما ذهب حمل ظله يمينًا أو يسارًا، إما يسير خلف ظله أو يجر ظله خلفه. ليصبح دون ظل فقط للحظة واحدة، فقط للحظة واحدة: منتصف الظهر! عندما تضرب شفرة الشمس الرؤوسَ.
كما أنه وفي تلك اللحظة ليس وحيدًا، فثروة البدوي الوحيدة هي ظله. يجلس، يجلس معه؛ يقف، يقف معه. وعندما يحل الصباح يمد عظمته حتى غرب العالم. وفي وقت الغروب يمد غروبه حتى شرق العالم. فمن هو الذي يملك كل هذا الإخلاص؟ أتترك صديقًا كهذا تسفعه الشمس ليحترق؟ ترى كيف يتكور في ذاته مرارًا؟ ترى إنه يقع عند قدميك. تسمح له بأن يتسلل من تحت أظافر قدميك.

أصبحت هذه من طبيعتك أن يكون هذا أقل ما تستطيع أن تفعله من أجله. وعندما يأخذ قالب جسمك عندئذ تهزم حدة الشمس، لذلك فأنه يسحب نفسه إلى الخارج من تحت أظافر قدميك شيئًا فشيئًا. ولكن إذا لم يسحب؟
إنها المصيبة ذاتها التي ابتليت بها في ذلك اليوم الصيفي من عام ألف وتسعمائة وثمانية وستين، حيث كنت كالعادة أقف دائمًا حتى يأتي سميلو٤ ويحضر رسالة معبودتي. استغرقت عدة لحظات فقط. في نفس اللحظة التي صفعتني فيها شفرة الشمس على رأسي. كان عمري عندئذ أربعة عشر عامًا فقط.
عندما وصل سميلو فارغ اليدين لمقابلتي كان يكفيني رؤية ذلك الفم المطبق وذلك اللمعان الرطب الذي أضاء مثل الدوامة في مقلة عينيه حتى أصبت كليًّا بزلزال عظيم. هرب سميلو بعبرة تخنقه مثل فم بركان مفتوح. كان يركض ويبكي وأنا المتزلزل دون أن تكون لي طاقة لإبداء ردة فعل، رأيت بأم عيني أن ظلي بقي مبهوتًا فيّ، وطردني من تحت أظافر قدمي.
معك الحق، يا برنارد، أن تناديني «مدمر الذات»، ولكن ليس لي الحق في أن أقول لأحد أنني إذا كنت أقاتل نفسي دائمًا، وإذا عملت خلافًا لمصلحتي الشخصية دومًا، فذلك لأنني أنا لست نفسي، وأن هذه الركلات التي أوجهها دائمًا لحظي فهي الركلات التي أوجهها لظلي. الظل الذي طردني ومنذ سنين جلس عنوة بدلًا عني.

٥

آه يا إريك فرانسواي الساذج! ليتك كنت ظالمًا أيضًا أو مثل الكثيرين كنت تمتلك قلبًا من الصخر. وفي تلك الحالة لم يصبح الطابق السادس من عمارتك آمنًا لنا، وفي تلك الحالة لم تعط بروفت تلك الحجرة الجانبية، التي كانت تستخدم لسنوات كمستودع، مجانًا. وفي هذه الحالة وبالرغم من وجود كل هذا البؤس وسوء الحظ لم نكن لنتمسك بتلك الغرف العليا تحت الصفيح أو على الأقل لجمعنا أمتعتنا وملابسنا المتواضعة بعد الليلة السابعة عشر من سبتمبر المشؤومة وذهبنا إلى مكان آخر. أو، أصلًا، لو كنتَ ظالمًا فماذا كنا نفعل هنا؟ كنا ننظر إلى تلك الغرف كمائدة سماوية. فإلى أين نذهب حتى لا يشغل أحد بلون بشرتنا وأصلنا ونسبنا؟ إلى أين نذهب حيث لا تطلب منا تأشيرة الإقامة؟ ولا يطلبون منا إيجارًا أكثر من قوت معيشتنا؟ فأنت لم تكن تطالب أحدًا بورقة الضمان، وأنت لم تطالب أحدًا بشهادة الحصول على الرواتب.
فبهذا النحو أصبحنا مقيمين. بهذا النحو، الشيء الوحيد الذي لم نفكر فيه في تلك الليلة المشؤومة أي السابع عشر من سبتمبر عندما حطم بروفت باب حجرة السيد حفيد النبي ووضع السكين تحت حنجرته هو أن نترك تلك الغرف له.
كنا أنا والسيد نعود من رحلة ليلية، وقد تناولنا العشاء في مطعم مكسيكي حيث يقدم أطعمة جيدة ورخيصة نوعًا ما، وقد انتشينا بفعل التكيلا لينشغل كل امرئ بعمله الليلي. كان السيد يهتم ليلًا بقصة كنت أنا بطلها الرئيسي، وكنت أنشغل ببورتريه كنت أرسمها في غياب إريك فرانسوا. بالطبع لم أكن أمتهن الرسم، إلا أنني لم يأتني النوم في الليل، ولو لم أشغل عقلي بعمل ما لصرت مجنونًا، كما أنه لم يكن هناك أي عمل أفضل من الرسم. فضلًا عن ذلك، فعندما لم أكن أفهم شيئا كان يجب عليّ أن أرسمه حتى أستطيع فهمه. وقد بدأت بصورة إريك فرنسوا شميت لهذا الغرض. أردت أن أفهم لغز أنفه الغريب الذي كان لمنخريه غدتان لحميتان إحداهما كالجوز والأخرى كالبندق بارزة وتكبر يومًا بعد يوم.
لم تمر بضع دقائق على مجيئنا، وكان المكان بأكمله موحشًا ولم يُسمع فيه صوت كمان ميلوش ولا أذكار علي الصوفية ولا أنات زوجة كلانتر المؤلمة.
كان السيد قد ذهب إلى غرفته وأنا كنت أغير ملابسي وأرحب برعنا.
كان الحزن على رعنا واضحًا، ولكنها كانت تحاول أن تخفي كبرياءها المجروح بابتسامة مصطنعة. كان قد مرَّ شهرٌ واحدٌ على مجيئها عندي. كانت قد اتصلت بي أولًا وعندما رفعت الهاتف كان صوتها يرتجف:
ـ أيمكنني أن آتي إليك لبضعة أيام؟
لم أفكر في أنها قد ورطت نفسها (كانت شابة وجميلة. كان من النادر أن تذهب لأحد ولم يرغب فيها. فالأمر كان ينتهي بنتائج لا تحمد عقباها. وتضطر بعد بضعة أيام من الدلال الكاذب للمضيف أن تلملم جوهرة عصمتها وعذريتها في حقيبة سفرها وترحل إلى مكان آخر). بالطبع لم أفكر أيضًا لماذا تذهب إلى أشخاص عزَّب بالصدفة. في المقابل قلت لنفسي: «لا يخلو هذا الأمر عن قضاء الدهر!».
لم تكن هذه المرة الأولى التي استنجدت فيها بالخرافات كالمصباح المستنير بدلًا عن العقل، ففي العام الماضي الذي جاءت إلي أيضًا لفترة وجيزة، وقالت من ذلك الجانب للخط: «عذرًا، أنا دونت هذا الرقم، لكنني نسيت اسم صاحبه»... وقلتُ لنفسي: «لا يخلو هذا الأمر عن قضاء الدهر!».
تركتَ قماشة الرسم وحاملتها في وسط الغرفة، أردت أن أبدأ ولكن رعنا لم تكن تنوي الذهاب. وكانت تجلس على حافة السرير ساخطة وقد عقَدت جبهتها. وكانت نشوتها للتكيلا تتحول إلى مرارة. وعندما كنت أمزج الأصباغ كنت أبحث عن حل وفجأة ارتفع صوت تحطيم شيء ما في البهو. في البداية لم أكترث مطلقا. عندما اشتد الصخب نظرنا أنا ورعنا إلى بعضنا البعض. سألت رعنا وهي منزعجة: «مرة أخرى هذه المرأة إياها؟».

من غيرها؟ كانت بنديكت قائدة هذا الكوكب السائب من الصباح حتى منتصف الليل ومن منتصف الليل كنت أنا قائده، ولكنه سرعان ما انصرف عن ذلك.
امتدت يدي لا إراديًّا نحو مقبض الباب لكنني سرعان ما تراجعت. كنت أعرف بنديكت منذ فترة طويلة. في نفس الوقت الذي كنت أعيش فيه مع زوجتي (المرحومة) وكنت آتي في معظم الليالي عند السيد كي أشفي غليل الإخفاقات التي كانت تصيبني في المراحل الأخرى بطعم النصر في صفحة الشطرنج (حيث كان للمعارك
مغزى وكانت تبدو أكثر واقعية من المعارك الأخرى).
كانت بنديكت تسكن في الغرفة رقم ٦ المقابلة للسلالم تماما. ولئن لم يكن لديها جيران كان يعد ذلك نقصًا في حياتها فكانت تقوم بتأدية بعض أعمالها في الممر. والشخص الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون جارها كنت أنا لأنني كنت أمتلك الغرفة رقم ١ و١٢. ولكن من حظه السيئ أن بيت السلالم الواسع كان قد فرق بينهما. فكانت إحدى غُرفتي على الجهة اليمنى من السُلّم والأخرى على الجهة اليسار. وعلى الرغم من أن ذلك كان مستحيلًا من الناحية الهندسية إلا أنني كنت أرغب في أن تتحقق أمنيتها يومًا وتتوالى الحجرات خلف بعضها البعض. فعندئذ، وبالرغم من أن باب غرفتي كان سيقع مقابل باب غرفتها ولكن على الأقل أن أفتح كالسيد جدارًا بين الغرف أفضل من أن أضطر بتسيير المفتاح مائة مرة يوميًا. وربما في تلك الحالة لكانت تنتهي العديد من مسرحيات كانت تمثلها بنديكت في الممر. ألم يكن كل ذلك الصخب من أجل إخراج رأس أحد الجيران؟
كانت مهمتي واضحة، كانت الغرفة رقم اثنان مستودع المبنى لسنوات، والآن إذ أصبحت مأهولة أجّروها لشخص كبروفت يغلق بابه باستمرار ولا يخرج من ذلك المكان مطلقًا إلا لقضاء الحاجة. وكانت الغرفة رقم أحد عشر التي تقع بجانب مطبخي تعود لشخص صوفي كان يسمى علي وكان يجلس بنفس جانب بنديكت ويستخدمها كمطبخ، وبعده كان هناك ثمة مرحاض أيضًا. وأخيرًا كانت الغرفة رقم عشرة التي تقع في نهاية الممر، وتعود لشاب موسيقار تشيكي يُدعي ميلوش. وكانت غرفته بعيدة على نحو حيث لم يعد الأمر مهمًا إن كانت في مقابلي أم في جهة بنديكت.
ـ أجن جنونها ثانيةً؟
عندما كانت رعنا تتوتر كانت يداها ترتجفان، قلت: «لا تهتمي».
كانت شدة الضوضاء غير مسبوقة؛ يبدو وكأن أحدهم أخذ الفأس وبدأ بتحطيم الطاولة والكرسي والأغراض الخشبية لشخص ما. انتفضت رعنا من المكان. توقفت للحظة لتصيخ السمع ثم ذهبت بخوف وارتجاف كأم تجد فجأة طفلها قد ذهب عند حافة حوض الماء (نظرًا لعدم التكافؤ العُمري لرعنا والسيد بهذا المصطلح فاسمحوا لي أن أقول ذلك بمصطلح آخر: كأم تجد زوجها فجأة قد ذهب نحو حافة الحوض). أمسكتها من ذراعها سريعًا: «ماذا تفعلين؟».
ـ يبدو كأنه كان صوت السيد!
وفي الحالة ذاتها التي كنت أمسك ذراعها أصخت السمع للحظة، ثم فتحت الباب بحذر.
استدارت رعنا نحوي مذعورة: «إنه يناديك!».
قالت هذا ونحتني أنا المصعوق جانبًا وأوصلت نفسها إلى الخارج بارتباك.
كان ثمة صوت يناديني من قعر البئر!

٦

كان ميلوش يعزف بشدة كما لو أن الدخان الذي انتشر في بيت السلالم قد انبعث من قوس كمانه الخاص.
قررت يائسًا أن أضغط بإصبعي على زر الجرس بقوة للمرة الأخيرة، فأصدر الباب صوتًا وكما هو الحال دائمًا سرعان ما ظهر غابيك أمامي ووقف على رجليه مستندًا بذراعيه على كتفي وحدق في عيني بعينيه الكبيرتين البارزتين.
كنت أتصبب عرقا من الخوف، وعلى ما يبدو ما جرى في الطابق السادس قد هيج غابيك بشدة، وكان يحرك خطمه أمام وجهي بوحشية. وقفت من دون حركة خشية أن يجدع أنفي بقفزة واحدة.
لم أكن أخشى الكلاب. أي أنه حتى فترة طويلة كنت لا أخشى رؤيتها ولا أنفر من لمسها. ولم يكن الوصول إلى هذه المرحلة سهلًا على الإطلاق، ففي البيئة التي نشأت فيها كانت الكلاب مخلوقات نجسة وأن أقل احتكاك بها يسبب التلوث وطالما لم تغتسل لن تكون تحتمل من قبل نفسك حتى. إضافة إلى ذلك، كانت الكلاب من المخلوقات التي إن أرادوا أن يُسحروا شخصًا يُحضرونه بقالبها. كما كان هناك أشخاص، طبعًا من كثرة ارتكابهم للذنوب، تحل أرواحهم بعد الموت في جسد كلب، كعقاب. مع هذا النوع من الثقافة لم يكن التعامل مع الكلاب سهلًا على الإطلاق. حتى لم تكن تعتقد، ولو منذ فترة طويلة، بأي شيء ومن ضمنه هذه الأمور. إلا أن الأمر حسم بسهولة. فذات ليلة حيث كنت قد اعتدت على وجود الكلاب المستمرة منذ فترة طويلة (أو
بعبارة أخرى قد تعودت الكلاب على تواجدي الدائم) واجهت كلبًا صغيرًا غزير الشعر يشبه جديًا صغيرًا على نحو غريب. ركضت لا إراديًّا واحتضنته. هنا فهمت أن تلك المعتقدات السابقة على الرغم من محتواها، لم تعد موجودة، إلا أنها مستمرة ظاهريًا. بعبارة

أخرى أنا أكره الكلاب طالما كانت كالكلاب. كما كان لدي النفور ذاته تجاه الماعز التي كانت في الواقع خرافا تبدو كالكلاب. إذًا، يمكنني الآن أن أرى أي كلب ذي شعر غزير كأنه جدي. لماذا لا استطيع أن أرى الكلاب ذات الشعر الأملس باعتبارها ماعزًا؟
وبهذا التمهيد نجحتُ تدريجيًّا في أن أوطد صداقتي بكلاب الأصدقاء كما وصل الأمر إلى التقبيل أيضًا. لكنني كنت لا أزال أخاف من غابيك. لعدة أسباب: أولًا، كان ضخمًا للغاية ولو لم أخف منه لكانت تثار بعض الشكوك. ثانيًا، كان قرويًّا وتصرفه شرس للغاية. ثالثًا، كان أسود تمامًا، ومن هذه الناحية فإنه أكثر من أي كلب آخر يحتمل أن يكون إنسانًا ممسوخًا، خاصةً وأنني كنت قد رأيت منه ما يجعلني أشك في كونه كلبًا. رابعًا، وهو الأكثر غرابة، فإن غابيك كان هو ذاته، و لم يكن. كيف أقول... في هذه السنة التي مضت على إقامتي كان قد مات وعاد إلى الحياة عدة مرات؛ إن شرح هذا صعب قليلًا ولكنني سأقول. تقريبا وفي كل مرة أذهب لدفع الإيجار الخاص بي لصاحبة المنزل وبعد تلك المراسم الأولية قبالة الباب، وبمجرد أن ألتقط أنفاسي، كنت أنوي من أجل توثيق صداقتي مع غابيك، الذي كان لا يزال يدور حولي، أن أداعبه. ولكن عندما كنت أقول كل مرة: «غابيك».. كانت صاحبة المنزل تقول بابتسامتها العطوفة إياها: «هذا ليس غابيك».
- ولكنك ناديته بغابيك.
- غابيك نفق. هذه اسمه مورو.
كانت قد قالت ذات مرة: «غابيك نفق، هذا ولف». كما قالت مرة أخرى: «غابيك نفق، هذا بوبي». وفي مرة أخرى قالت: «غابيك نفق، هذا روكي».
ذات يوم قلت وقد نفد صبري: «ولكن هذا بالضبط الكلب ذاته الذي أراه دائما».
- لأننا نحب غابيك كثيرًا، حاولنا أن نعثر على كلب يشبهه.
ثم نهضت من مكانها ببطء وأخذت صورة من فوق الرف العلوي وأرتني إياها: «هذا غابيك. أترى..»، اعتقد أنها كانت تريد أن تقول «أترى مقدار التشابه بينهما؟». لكنها وهي تمسك بالصورة أمامي، حدقت في نقطة في الفراغ، ثم واصلت كلامها هكذا: «أترى كم هو جميل؟».
- ولكن صباح كل يوم عندما يجرجره السيد شميت إلى الخارج، أسمع صوتك من داخل غرفتي تقولين «لا، يا غابيك. ليس هنا».
أظن أنني قلت الجملة الأخيرة بصوت مرتفع ما جعل إريك فرانسوا شميت، الذي منشغلا بكتابة إيصال الإيجار، أن يرفع رأسه وارتسمت ابتسامة خجولة على شفتيه كأنني ارتكب خطأ ما: «أتعلم أن هذا الكلب ولم يعتد على الشقة بعد». وأضافت زوجته بلهجة معتذرة: «كلما قام إريك بتوبيخه لا يكترث. وفي النهاية يتبول على السلالم».
ارتجف جسمي كله. وسيطرت ماتيلد، والتي كانت تقف أمام الباب، على غابيك ووجهت نظرها المستغرب نحوي.

٧

كان باب غرفة السيد مفتوحا على مصراعيه، انهار قلبي. لا هو ولا أي أحد آخر من سكنة هذا الطابق يترك بابه مفتوحًا غير كلانتر ولذلك كان الجميع مستاء منه.
بمجرد أن أوصلت نفسي إلى غرفة السيد واجهت مشهدًا لم يكن بإمكاني تصوره أبدا. كان السيد واقعا على الأرض بينما كانت بروفت عاري الصدر يضع السكين تحت حنجرته!
كان السيد الكسندر شابا أنيقا يسكن في غرفتي رقم ٣ و ٤، أي أمام بروفت بالضبط. أي شخص كان يراه سرعان ما ينجذب إليه. يقسم أحد أصدقائه أنه يملك خرزة ثعبان. بالطبع أنا لا أقبل أن أقسم بهذا. لكنني لا أنكر أن هناك نوعا من المغناطيس في وجوده. كان وسيمًا ولم تفارق الابتسامة وجهه. في تلك الفترة المريرة التي كان الناس يعانون خلالها من الاكتئاب، كان هو بوابة مفتوحة على حديقة خضراء.
كان يكفي أن يدخل في اجتماع، فعندها يبدأ بمجالستك وبعد نصف ساعة ستصبحان صديقين وكأنكما معًا منذ ألف سنة. لقد كانت حالتي تختلف بعض الشيء بالطبع، وقد مرت سنتان. لكن هل كان لدي شيء يشبه
البشر حتى تكون علاقاتي تشبههم؟ وحده مرض "الانقطاع الزمني" كان كافيًا حتى يتسبب بالاشمئزاز بيني وبين مخاطبي خلال عدة دقائق. ناهيك عن هذا لم يكن هناك أي شيء يعتبر جديدًا بالنسبة لي؛ وكنت قد وصلت إلى حد من اللامبالاة بحيث إذا قال أحدهم بكل حرارة في اجتماع إن «ألكسندر دوماس الأب هو الأخ الأكبر لألكسندر دوماس الابن وابن أخت رولاند دوماس وزير الخارجية»، أو أن يقول: «إن شكل العضو التناسلي عند المرأة مربع» لن أقوم بأي رد فعل. ما أهمية ذلك؟ هل أخطأ؟ فليخطئ. ثم لماذا يجب علي أنا بالذات أن أذكره بخطئه؟ حتى أظهر له وللآخرين أنني أفهم أكثر؟ حسنًا، ما الذي سيغيره هذا؟ حتى أكون في موضع الاهتمام؟ ما الذي سيجديني اهتمام الآخرين عندما تهاجمني «الانقطاعات الزمنية» حتى خلال محادثة قصيرة؟ عندها كان علي أن أهز برأسي مثل الماعز الأبكم عبثا ودون جدوى حتى يظن الطرف الآخر أنني أستمع إلى كلامه. وإذا سأل في هذه الأثناء الطرف المقابل عن شيء ما وكان الجواب سلبيًا وأنا كنت متأثرا نتيجة فراغ «الانقطاعات الزمنية» وعندها قمت بهز رأسي مرة أخرى، ما الذي كان يجب علي فعله أمام دهشته؟ وهل كنت مريضًا أصلًا كي أورط نفسي في سماع أحداث لم يكن واضحًا لي في الأغلب لا

فاعلها ولا زمانها ولا مكان حدوثها؟ ما فرق مصاحبتي مع الآخرين عن عامل مصعد معرض دائما لسماع أحداث لم يكن مطلعًا على بدايتها ولا نهايتها؟ كما أنه لم يكن هناك أحد يتوقع ردة فعل من عامل المصعد؛ بل يفرحون عندما يكون منشغلًا بشيء آخر.
وكان السيد على النقيض مني بالضبط؛ كان يستمع باهتمام بالغ. وكان في الأغلب يقوم بطرح قضايا ذات صلة بكلام الطرف المقابل مما يدل على إنصاته العميق. وهكذا كان دومًا يكتشف مواهب في ذات الطرف المقابل – على الرغم من مكانته المتدنية – تكون مصيرية بالنسبة لتقدمه. ومع ذلك فهو أيضا مثلي لم يصبح شخصًا مهمًّا حتى الآن، ومن هذا المنطلق كنا نتشابه بشكل غريب. ومع أننا كنا نختلف كثيرًا إلا أننا أصبحنا نتشابه، كالليل حين يتحول إلى نهار في منتهى عتمته. كلانا كنا نبذر امكانياتنا. مع هذا فالفارق أنني كنت من خلال عدم اغتنامي للفرص أقوم بإهدار إمكانياتي، وهو من خلال الخلق المتزايد للفرص والامكانيات وتركها لصالح الفرص الجديدة. لم يمر عليه يوم إلا وقد تعرف فيه على العشرات من الناس والأصدقاء الجدد. ولم يكن هناك شيء مفيد في الشخص الذي كان يتعرف عليه، ولهذا السبب كان يحلق من غصن إلى آخر. وأنا أيضا كنت أقفز من هذا الغصن إلى آخر باستمرار؛ ويعود ذلك إلى عدم وجود أفق خادع يجعلني أتعلق به. لكن سبب ذهابه كان لوجود أفق خلاب يراه في كل لحظة فينجذب إليه. اشتغل لفترة بكتابة الشعر، ومارس لفترة أخرى التدريب على عزف الكمان. واشتغل لفترة أخرى في بيع وشراء اللوحات الفنية والأشياء التراثية. وأدار لفترة مطعمًا، وامتهن بين حين وآخر بيع البساط. ومارس لمدة علم الاجتماع. ودرس علم النفس لفترة وجيزة. وترك كل هذه الفعاليات ناقصة وتوجه نحو الكتابة. ولم يكمل الأخيرة إلا أنه عاد إلى تجارة البساط، لكن هذه المرة من خلال مشروع طويل وعريض تحت عنوان إقامة سلسلة من المعارض الكبيرة للبساط في مدن عدة.
- البساط والسجادة تعتبران لوحات فنية عادة ما يكون مكانهما على الجدران وليس تحت الأقدام!
لكن وراء كل هذا القفز من غصن إلى آخر كان هناك شيء لم يتغير أبدا: السعي وراء نيل العظمة غير المحدودة. لم يكن للازدراء مكان في روح السيد. كان يكره كل شيء صغير، عمل صغير، دخل صغير، نسب صغير وفي كلام واحد كل شيء لم تكن فيه العظمة. كل شخص وطني عندما يراه يقول مع نفسه: «لو كان للوطن رجل كهذا إذا مالذي كان يحتاجه الوطن يا ترى؟». لم يكن يرى العظمة في نفسه فقط بل في كل الأشخاص. ولم يكن يريدها لنفسه فقط بل لكل الأشخاص. وعلى هذا الأساس كان من الطبيعي أن يقدمني، أنا الذي كنت دهانًا بسيطًا للبنايات، باعتباري رسامًا كبيرًا في بلادي، ويقدم نفسه المولود في مدينة «قم» باللهجة الفرنسية، التي تلفظ «ر» بـ«غ»، بأنه من مواليد «روم»!
وهكذا وفي أحد الأيام غير جنسيته وسمى نفسه الكسندر؛ وشيئًا فشيئًا وجد في بقايا حاجات والده شجرة عائلية تشير إلى أنه من مواطني إيطاليا الشرفاء.

٨

من دون يلقي بالًا لضحكتي البلهاء، كان فاوست مورناو ينظر إلى الدفتر وكأنما وجد فيه أمرًا جديدًا. كان وجهه الحليق يلمع بلون فضي تحت الضياء المائل الذي كان يسطع من اليسار. وكان هبوب نسيم عليل يحرك شعره الفاقع وشاله الأبيض، بهدوء. وقال شيئًا بلغة لا أعرفها وهي أقرب إلى البلوشية منها إلى العربية، فلم أفهمه. وفجأة لاحت ورقة في الهواء، ومد فاوست مورناو يده نحو زميله الملاصق له، وأخذ الورقة منه، وأمسك بها أمامي: «هل هذا خطك؟».
- أنت تعلم لا يمكنني أن أقرأ من دون نظارتي.
سحب فاوست مورناو يده: «أنا سأقرأه لك».
انبثق بصيص أمل في: إذًا لا يعلمان كل شيء! وإن لزم الأمر يمكنني إخفاء بعض الأمور. في الحقيقة كان بصري ضعيفًا، ولكن ليس إلى حد لا يمكنني القراءة من دون النظارات.
تنحنح فاوست مورناو وقال: «كتبت في أعلى الصفحة «المذكرات»، ثم هكذا مضيت: من القاتل؟ السيد الكسندر؟ ابني من «م أ ر»؟ المجنون المجاور لي؟ أم الخاتون، المرأة التي أينما ولت تمسي ملاك الموت؟ وهنا عدة جمل شطبتها؛ ولكني ساقرأها. كتبت: إني مصاب بثلاثة أمراض خطيرة: «الانقطاع الزمني»، «تهديم الذات»، و»المرآة». إني أموت مرتين، مرة على يد ابني الذي يكرهني، والثانية على يد... (الخط سيء جدًّا) القسم الأول للخطاب لابني. القسم الثاني للخطاب لنكير والمنكر. القسم الثالث... هل هذه النصوص لك؟».
انهار قلبي، فهذه النصوص تعود إلى الكتاب الذي ألفته قبل مدة طويلة، ولم ينشر قط. ولأي ناشر أعطيته كان يقول لي صريحا ومن دون مواربة إن هذه التفاهات ليست بنصوص أدبية، وأنني قد أهدرت وقتي. وبما أنني كنت أعتقد أن الآخرين محقون دائمًا، لم أهدر وقتي وتوجهت للرسم. أي في بدء الأمر امتهنت عمل دهان البنايات سعيًا للرزق، ومن ثم بما أنه كانت لدي كمية من الأصباغ بدأت كهواية برسم صور جميع الأشخاص الذين لم أفهمهم قط، وكان أولهم بعض الناشرين.
والآن... تركوا كل شيء ويريدون أن يتمسكوا بهذا الكتاب؟ قلت: «كما تعلمان كنت كاتبًا في يومًا ما، وعندما لم أفلح في هذا العمل كالأعمال الأخرى الكثيرة...».
- لا تذهب بعيدًا! هل هذا النص لك؟

- نعم، هو كذلك.
- هل تؤيد أن هذه النصوص تعود إلى كتاب باسم "الليلي لأوركسترا الأخشاب" الذي نشرته بتوقيع مزيف؟
- كذب، فهذا الكتاب لم ينشر قط.
قال الصديق الملاصق له: «هذا هو الجواب نفسه الذي أعطيته في ذلك الكتاب!».
قلت: «وأنتما أيضًا طرحتما السؤال نفسه!».
فقال فاوست مورناو: «هل تؤيد ذلك؟».
قلت لنفسي أنه يجب التعامل بشدة منذ البداية؛ فماذا سيفعلان بي؟ أقصى ما سيقومان به أنهما سوف يرمياننني أمام أفعى الغاشية، أو يقطعانني بالمنشار إلى نصفين. ولن يعيداني إلى ذلك الجحيم مرة أخرى! وعلى هذا الأساس تجرأت وقلت بلهجة خصام: «هذا المكان أيضًا يشبه تلك المخروبة».
أغلق فاوست مورناو دفتره، والتفت إلي بغضب: «سيعيدونك إلى ذلك الجحيم عقابًا لك».

٩

كانت الطاولة التي نعدها للعبة الشطرنج الليلية مقلوبة بالكامل، وكان أحد قوائم الكراسي مكسورًا وقد وقع في وسط الحجرة. وأي شيء كانت تقع عليه عيناي كان وضعه غير طبيعي.
عندما كانت ترتفع درجة الحرارة في موسم الصيف كان من الممكن أن ترى أحدًا في الممر نصف عارٍ. وغالبًا ما كان السيد يمشي في الحجرة بسروال داخلي طويل ويذهب إلى المرحاض بحالته هذه، وإذا كان يأتي أحد لرؤيته، سواءً أكان رجلًا أم امرأة، لم يكن ليغير من وضع ملابسه. وكان من الممكن في أغلب الأوقات أن ترى بنديكت نصف عارية، وأنا أيضًا كنت أتكاسل في بعض الأحيان وأكتفي بارتداء البنطلون. أما بروفت، الذي كان من سكان منطقة "جواديه"٥ ومحتفظًا بمظاهر الحياء وتقاليد جنوب المدينة في كل تصرفاته وأخلاقه، لم يره أحد نصف عارٍ. والأكثر غرابة أنه في تلك الدقائق التي مضت على مجيئنا كان السيد وبروفت في غرفتيهما، ولم يكن هناك أي صخب يدل على وجود نقاش بينهما. ثم هذا الوضع الغريب... هل يعني أن بروفت كان يريد أن يعتدي على السيد؟
عندما رآني بروفت ترك السيد، وعندما وصل أمامي بسكينه العاري تملكني الذعر. كانت عيناه المدورتان والكبيرتان اللتان تزرعان الخوف حتى في أي وقت اعتيادي قد جحظتا بحيث امتلأتا بياضًا بالكامل. فقلت بصوت متحشرج: «ماذا حدث؟».
وجه بروفت السكين نحوي مهددًا وقال: «أين هو؟».
ذهبت نحو السيد وكنت في حالة مشوشة من هذه الإجابة، ووجهت سؤالي إليه مكررًا وأنا أمسك بذراعيه. أن السيد وقد شحب لون وجهه: «أراد أن يقتلني».
- لماذا؟
اجتاز بروفت عتبة الباب بين حجرات السيد، وقال وهو يتفحص الأطراف: «أين هو؟».
التحق كلانتر وزوجته بي مشكلين جمعًا حول هذا الصخب.
كان كلانتر أحد الشباب الإيرانيين النجباء، وكان يعيش في غرفة رقم سبعة، بين غرفتي علي وبنديكت تمامًا. ولئن كان من المواطنين القدماء فكان يعتبر نفسه محقًا في التدخل في كل واردة وشاردة، وتحت أي ذريعة كان يتدخل في أمور هذا الطابق مادامت تخص مواطنيه.
عندما سيطرت على حالة ذهولي وانفعالي الأوليين، ولمحت نظرات السيد المطالبة بالحماية اضطررت إلى أن أودي دورًا لا أحبذه كثيرًا، ولكن حضور رعنا والتحاق متفرجين جدد للحشد وهباني قوة جديدة ضرورية لأودي دوري بشكل جيد، فأمسكت بشعور أبوي ذراع بروفت وقلت وأنا أحاول أن أبعده نحو الخارج: «لماذا تمسك السكين بيدك؟ هل أصبحت طفلًا؟».
كنت أظن أنه بمجرد خروجه من الغرفة سأصل إلى غايتي؛ أن يغلق السيد الباب وينتهي الشجار إلا أن تخلص بروفت مني بشقاوة وعلى الرغم من أنه أحبطني جدًّا بعمله هذا ولكنه لحسن الحظ سلك نفس الطريق المطلوب. كان يجب الآن أن نغلق الباب وينتهي كل شيء؛ إلا أن بروفت التفت إلى اليسار بتلك السرعة التي كان تخلص بها، وبدأ بركل باب الحجرة التالية، أي الغرفة رقم أربعة التي كانت تعود للسيد، وكان بروفت قد خرج منها توًا.
بما أن دمي بدأ يغلي ولم أعد أحتاج حافزًا آخر لتأدية دوري، أوصلت نفسي إليه مسرعًا: «هل جننت؟ لماذا تكسر باب غرفة الناس؟».
وجّه بروفت سكينه مرة أخرى نحوي: «أين مهدي؟».
- من هو مهدي؟
ركل بروفت غرفة رقم أربعة مرة أخرى: «لمن هذه الغرفة؟».
قلت: «هذه الغرفة ذاتها التي خرجت منها توًا».

تريث قليلًا، شعرت أني قد أثرت فيه قليلًا، فأضفت على الفور وبصوت هادئ: «تعال وأنظر بنفسك».
دخل بروفت الغرفة مرة أخرى، ومن ثم اخترق الباب الذي كان بين الحجرتين. ولأول مرة في هذه اللعبة الخطيرة شعرت، أنا الذي كنت أسير خلفه، بالانتصار؛ وحتى أنقل هذا الشعور إلى السيد، الذي كان كمن يخرج من أعماق البئر، غمزت له وثمة ابتسامة رضا تعلو شفتي. كأن رموشي شفرتا مقص حادٌ وقد طبقتا على بعضهما، وأن حبل السيد قطع في منتصف الطريق وسقط مجددًا في أعماق البئر.
ربما كان يظن أن دفع هذا الغول، الذي خرج كيفما حدث، نحو الداخل سيكون خطأ إستراتيجيًا. وربما كان غاضبًا لحماقتي بفضح أمر الباب الذي كان قد فتحه بين الغرف دون علم مالك البيت، خاصة أن عدوه اللدود كلانتر كان حاضرًا هناك، ويحتمل أن يستفيد من هذه المعلومة.
تبين من خلال عودة بروفت السريعة إلى داخل الممر، أن إستراتيجيتي في كسب ثقته أتت ثمارها، وقد أعطاني هذا الأمر جرأة وأنا أدرس جوانب الأمر أخذت السكين من يده بهدوء وحزم.
كأنما رفعت الأقفال عن الأفواه مع خلع سلاح بروفت، فتحرك الجميع فجأة، وتحلقوا حوله رويدًا رويدًا حتى ارتفع صوت الهمس.
- ماذا حدث؟
- ما الأمر؟
كان كلانتر يسأل بروفت، وكانت زوجته التي لم يزل خوفها بعد، تسألني؛ وكانت رعنا تسأل السيد.
عندما وجد بروفت حضور الآخرين مناسبًا، صعد السلم الموجود دائمًا في نهاية الممر أي بين غرفته وغرفة السيد بالضبط، وبدأ بخطابه التاريخي وهو يحرك يده في الهواء.
١) قصة ذكرت في ديوان المثنوي المعنوي لجلال الدين مولوي الرومي بأن جارية اشتهت ممارسة الجنس
فاختلت مع حمار قتلها بقضيبه الكبير لأنها لم تنقص من طوله من خلال تمريره بكوسا فارغة!
٢) أعظم كتاب إيران المعاصرين، تمثل حياته الكفاح في سبيل الوطن. وهو في ذلك يتم سيرة أبيه السيد جمال الدين الذي كان زعيمًا سياسيًّا في مطلع القرن ٢٠ قد قاوم مظالم القاجاريين، وطالب بالدستور وبعدم تسليم إيران للمستعمرين، وقد سمي أبوه فولتير إيران، وصحب جمال زاده والده في تنقلاته، ولمس اضطهاد الحكومة له. بعث به أبوه إلى لبنان وهو في العاشرة من عمره، التحق بكلية الآباء في عنتورة حيث ظهرت مواهبه الأدبية، فأصدر بالاشتراك مع زميل لبناني " وجيه خوري"، صحيفة باللغة الفرنسية كانا يكتبانها بأيديهما، وفيها نشر جمال زاده أشعارًا بالفرنسية، وهناك عرف أن أباه قتل مسمومًا في سجن بروجرد، فكان لهذا الخبر أثر عميق في نفسه وفي توجيه مستقبله نحو مواصلة جهاد أبيه لتحرير إيران. ترك لبنان إلى مصر ثم إلى سويسرا حيث التحق بجامعة لوزان ليدرس القانون، لقي شظف العيش كما لقي عونًا يسيرًا من أصدقاء من الشبان الإيرانيين الموفدين لاستكمال دراستهم بأوروبا. وفي برلين أخرج جمال زاده " كنج شايكان"، وكان أصغر جماعة برلين، ورغبت الجماعة في إيفاد مندوب إلى بغداد ومنها إلى كرمانشاه بإيران لتأسيس جريدة إيرانية فوقع الاختيار على جمال زاده، فسافر إلى بغداد باسم مستعار ولقي في رحلته عبر إستانبول مصاعب جمة، إذ قبض عليه ثم أطلق سراحه وبلغ بغداد وأسس فيها جريدة إيرانية "رستاخيز" (البعث). وعاد إلى برلين حيث وجد أخوانه يصدرون مجلة " كاوه"، وكان أول مقال له فيها "حين تصبح الأمة رقيقًا" وترجم المقال إلى الألمانية. وفي هذه الفترة كتب كتابه الرائع "حدث ذات مرة". وبانتهاء الحرب العالمية الأولى استقر جمال زاده في جنيف حيث عين بمكتب العمل الدولي، وظل في وظيفته هذه حتى أحيل إلى المعاش ممارسًا الكتابة. وهو إمام الأدباء في إيران، ومن كتبه: "دار المجانين" ١٩٤٢، و"قصة القصص" ١٩٤٢، و"عم حسين علي" ١٩٤٣، و"صحراء المحشر" ١٩٤٥، و"قصة قناة" ١٩٤٧، و"المر والحلو" ١٩٥٠
٣) جزء من قصيدة للشاعر الفرنسي جول سوبر فاي.
٤) اسم تصغير لإسماعيل.
٥) من حارات جنوب طهران.

الفصل الثاني: سطح فضي باهت

١

لماذا أقول لك هذا الكلام؟ لأصرفك؟
كلا، فقد انتهى أمري، فأنا أعلم بذلك أيضًا، وأعلم أيضًا أنك لم تخف يديك الناعمتين من أجل إخفاء تلك الرجفة الخفيفة، وأعلم كذلك أن تلك الإشعاعات المميتة التي تسطع من تماس يديك الناعمتين بذلك الشيء الفولاذي البارد هو من نوع لا يتكرر أبدًا.

كلا، لقد انتهى أمري. علمت بهذا الأمر منذ ظهرت عند عتبة ذلك الباب، يا لسكر الشباب المسبب للصداع! كأنما أرى نفسي في المرأة وأنا في الرابعة عشر من عمري؛ العينان، هما تلكما العينان – مع صبغة من الألم خلف الجفون – والأنف هو ذلك الأنف المعوج.

كالعادة شككت، أي تركت عملي مجددًا دون أن أشاء، وغرقت في الضلال الثقيلة الساكنة في "الانقطاع الزمني" – دون أن أعلم متى، كيف وبأي نحو – شرعت بعمل آخر؟ كالسيجارة التي أشعلها غالبًا دون أن أعلم متى دخنتها، ودخنتها دون أن أعلم متى أطفأتها؟هل يعني هذا أنني ابتليت بداء «الانقطاع الزمني» المزمن"، حين وصلت لرسم أنف إريك فرانسوا شميت، وتركت القماش والباليت والفرشاة وفتحت باب غرفتي، ووضعت المفتاح في قفل باب المطبخ وذهبت مباشرة نحو المرآة؟

جميع هذه الأعمال تنفذ في وقتها، ولنفرض أن ذلك بسبب الأعمال اليومية، فإن إنجاز هذه الأمور بنحو تلقائي ولا إرادي يعد أمرًا ممكنًا، فماذا عن مفتاح المطبخ؟ فمفتاح المطبخ أنا أضيعه دائمًا حتى في هذه المساحة المحدودة، لأنني أتركه في كل مرة في مكان ما ودائمًا أنسى أين وضعته! فضلًا عن أنني أترك أعمالي وأقف أمام المرآة. ماذا عن الصورة؟ فأنا منذ سنوات لم أر صورتي، منذ تلك الحادثة النحسة بالضبط.

كلما أقف أمام المرآة أرى سطحًا فضيًّا غير مرئي فقط وهو فارغ إلى النهاية. كنت أظن في البداية أن المشكلة من مرآتي؛ وفي أحد الأيام تملكني الخوف حيث جاءت "م أ ر" لرؤيتي وكنت أحلق لحيتي أمام المرآة. في الحقيقة كلما أردت أن أخرج العادة الحمقاء لحلاقة لحيتي أمام المرآة من رأسي لم أستطع. في النهاية، صحيح إني لم أكن أرى وجهي ولكني كنت أسمع صوت احتكاك شفرة الحلاقة!

في الأساس لم أكن أحلق لحيتي من أجل إثارة استحسان هذا وذاك؛ فهذا الصوت الذي كان يخرج من داخل المرآة كان علامة الصورة التي كانت موجودة أم كان يجب أن تكون موجودة، ولكن لأسباب ما لم تكن تظهر على سطح المرآة. يشبه ذلك الفيلم الذي كان يوضع في جهاز الفيديو، إلا أنه بسبب بعض الأمور الفنية لم تكن الصورة تظهر. والآن إن لم تكن لديكم الصورة فماذا إن سمعتم الصوت؟ ألم تقفوا أمام المرآة يوميًّا لحلق اللحية؟ إذًا أنتم يائسون جدًّا!

في كل مرة كنت أحلق لحيتي كنت أفعل ذلك آملًا؛ وإذا لم أكن أتكلم مع أحد عن موضوع المرآة فذلك ليس خوفًا على مكانتي، فأنتم تعلمون! إنهم ينتظرون ذريعة كي يضعوكم جنب المجانين الذين يرون في ذلك الجانب من ثقب الجدار المطلّ على الصحراء أمورًا لو وقفتم حتى يوم القيامة لن تروا شيئًا. وتقولون أليس علي أن أحتاط؟ وأنا عادةً لا أرى ذلك الشيء الذي يراه الآخرون في المرآة، وهل أنا مجنون كي أفعل شيئًا حتى يضعوني جنب المجانين الذين...

عندما انتبهت للمرة الأولى لهذه المعضلة الجديدة كنت كالمبتدئ الذي يبتاع حديثًا جهازًا يظن أن مشكلة فقدان الصورة مشكلة بسيطة وتحسم بقليل من التلاعب بالجهاز، فبدأت بالتلاعب بالمرآة. لو أردتم الحقيقة بقليل من التلاعب تمكنت مرة أو مرتين من روية صورة موسى الحلاقة فبدا كأنه يرتفع ويتدنى دون أن أرى أي صورة للوجه أو اليد. وعندما تمكنت أن أرى صورته لمدة طويلة بدأت بوضع اختبار للنفس، أو كما يقول العلماء بدأت أفكر بإيجاد حل عملي للموضوع.

تبين حتى الآن أن مرآتي تظهر صورة الأشياء ولكن ليس صورة البشر. فهل يا ترى كان هذا الاستنتاج منطقيًّا تمامًا؟ بالطبع لا، فكل ما تمكنت من رؤيته حتى تلك اللحظة هو موسى حلاقتي، فبدأت بالعمل بسرعة فائقة، وقبل كل شيء سحبت الستائر، ومن ثم في حال كان الشوق يقلع قلبي من مكانه أمسكت فرشاة أسناني بخوف وأمل ووضعتها أمام المرآة. ولكن أمام دهشتي كانت المرآة فارغة! وضعت موسى الحلاقة أمام المرآة ثانية فبدا لي واضحًا. وهذه المرة وضعت فرشاة الأسنان وموسى الحلاقة معًا أمام المرآة ولكن كنت أرى

صورة موسى الحلاقة ولكن لم يكن هناك أي أثر للفرشاة.

كان فمي مر المذاق، وبدا لي أني مصاب بحالة من الضعف والدوار؛ فما حدث لم يكن يطابق أي منطق. انحنيت فورًا كي أفرغ ما كان يغلي في معدتي في المرحاض، إلا أنه لم يكن هناك غير قطرات من سائل حامض الطعم وحارق. تناولت فرشاة أسناني لأتخلص من ذلك الطعم المقرف لحامض المعدة، ووضعت عليها قليلًا من معجون الأسنان وبدأت بغسل فمي حتى انقلب الوضع فجأة.

استعرضت في ذلك اليوم حتى منتصف الليل كل ما كان في متناول يدي من السيخ وحاملة الرسم حتى الحذاء والطنجرة أمام المرآة. وفي النهاية، ومن دون أن أتوقف رأيت فجأة بين هالة من الرغوة البيضاء قبضة فرشاة أسناني التي كانت تتحرك. كنت أريد التأكد من أن نظرية الأشياء صحيحة.

كانت صحيحة، فالمرآة لا تبدي إلا الأشياء الفاقدة الروح، فحتى الصرصور النافق في أسفل المرحاض عندما رفعته أمام المرآة كانت صورته واضحة. والآن الأمر الذي كان يدفعني لمحاولة مجنونة لم يكن إثبات خلاف ذلك. كان علي أن أتأكد قبل كل شيء من أن الوصول إلى الحقيقة إلى أي حد هو صحيح؛ مع إنه حتى قبل تلك اللحظة توصلت إلى مئات من الإجابات الصائبة، وكان هناك سؤال يدور في رأسي مثل شوك مزعج وقد حيرني كثيرًا وهو «لم لم تظهر المرآة فرشاة الأسنان منذ البداية؟».

وعند إجابة هذا السؤال أدركت بعد عدة اختبارات مكررة أن مرآتي تتحسس من فرشاة الأسنان، وللأسف فهي تظهرها فقط عندما أقوم بتنظيف أسناني. ومنذ ذلك الحين الأمر الذي كان يدعوني بالعمل الشاق بجنون هو إيجاد الإجابة لهذا السؤال: «هل هناك شيء آخر تتحسس منه مرآتي؟ وإذا كان موجودًا فما هو؟».

٢

عندما صعد بروفت على السلم انتبهت إلى لياقته البدنية وعضلاته الرشيقة.
بأي جرأة تقدمت نحوه وأخرجت السكين من يده؟ أنا الذي أخاف حتى من رؤية السكين!
أعلم أنكم ستظنون أنني مصاب بجنون الارتياب؛ وإن يكن، فأنا قد اعترفت بأمراض أسوأ منها. إذًا دعوني أفصح لكم عن كل شيء. في الحقيقة لو أرادوا أن يعطوني كل ثروة "عدنان خاشقجي" لكي أسلم لحيتي لحلاق محترف فإني لن أفعل. فما هو الضمان ألا يصاب بالجنون الآني ويذبح المرء من الوريد إلى الوريد؟ لا سيما مع ذلك الإزار الذي يلفه حول عنق المرء ويسلبه أي إمكانية للدفاع عن النفس؟ صحيح أنه لم يحدث قط مثل هذا الأمر حتى لمرة واحدة، ولكن هل أنتم تضمنون لي عدم حدوثه؟ فضلًا عن ذلك، كيف تريدون أن أقبل ضمانكم؟ والشهادة على ذلك بروفت نفسه! وهل كان أحد يعلم أنه سيجن يومًا ما؟
فالمسألة الآن ليست هكذا، فأنا كنت متحيرًا كيف تجرأت وتقدمت صوب بروفت مع كل خوفي وارتيابي من الموت؟ خاصة وقد مضت أيام كان موسم القتل والدمار مستمرًا، وحتى قبل أيام ذبحوا شخصًا بسكين المطبخ من الوريد إلى الوريد؛ وذلك على مرأى ومسمع الشرطة!
والآن ذلك الرجل الذي كان منذ بداية مجيئه لطابقنا مشكوكًا في أمره يجن جنونه ويمسك السكين بيده ومن ثم آتي أنا مثل شرطي الحارة أناور أمامه، وأقوم بإمساك السكين من يده!
في الحقيقة كلما أفكر من أين جاءتني هذه الحماقة، لم أتوصل لشيء. خاصة أن بروفت ارتقى السلم وتفوه بكلام كان أغلبه مثيرًا للدهشة.
- لقد بلغ الماء الآسن السقف وانتشرت رائحة القرف والقذارة في كل مكان؛ وتجاوزت الرذيلة والنذالة حدها، وأصبح الوضع لا يطاق! ويجب علي أن أوضح أمري، فأنا لست مثلي الجنس! ولا مأبونًا! سأنال من أمهات وأخوات من ينشر القذارة. عليكم كلكم أن تجتمعوا غدًا! رجالًا ونساء. علي أن أرى أمري مع كل واحد منكم!
قال هذا ونزل من السلم بالسرعة الفائقة ذاتها ودخل حجرته.
لمدة كنا ننظر لبعضنا بدهشة، وفي النهاية، تقدم نحوي كلانتر الذي كان على عداء قديم مع السيد، ولم يبد أنه غير راض من هذا الحدث: «ما الأمر؟».
أخبرته بعدم اطلاعي، ولئن كان الوقت متأخرًا نصحت الجميع بالعودة إلى غرفهم كي يتم حل الأمر غدًا وبهدوء أكثر. في الحقيقة كنت أريد أن أبعد كلانتر وزوجته عني بهذا الكلام. خاصة أنني كنت أخاف أن يرتفع الضجيج بتجمعهم في الممر أو أن يتفوه أحدهم بكلام يثير غضب ذلك الغول الذي عاد برجليه لغرفته.
عاد كلانتر وزوجته إلى غرفتهما وذهبنا أنا ورعنا إلى غرفة السيد. دقت ساعة كنيسة "سانت بول" عند الواحدة فجرًا.

٣

لم أكن أصدق، فهذا كان أشد عذاب يمكن أن يخصص لي، قلت: «هل تمزح؟».
قال فاوست مورناو: «هذا ليس مزاحًا! سيعيدونك إلى ذلك الجحيم ذاته!». قال هذا الكلام بلحن قاطع ما أثار خوفًا في قلبي. كنت ألعن نفسي في سريرتي لشجاري مع أناس لطيفين مثلهم، وأنني جلبت لنفسي عذابًا لم أكن أتصوره أبدًا وذلك عن طريق إثارة غضبهم.
وضعت سهمي الأخير في القوس ببؤس: «أنظرا أيها السيدان، أنا مريض وهذا خارج عن إرادتي. تعلمان جيدًا أنني مصاب بمرض «تهديم الذات»، كما أن برنارد المرحوم هو من كشف إصابتي بهذا المرض، وإلا فأنا أيضًا لم أكن أعرف. مع هذا فإني أعتذر عن أسلوبي المتعجرف».
قال الذي بجانبه: «الخطأ ليس هنا».
- إذًا فأين هو؟
- أنت ارتكبت عدة جرائم قتل!
شعرت بدوار في رأسي، هل يمكن لي أن أرتكب جريمة القتل في تلك اللحظات التي كنت أقضيها في ما يدعى بـ "الانقطاع الزمني" كالمشي في النوم دون أن أعلم؟
حدث لي أن غسلت رأسي عشرات المرات أثناء الاستحمام، لأنني في كل مرة كنت أصاب بـ"الانقطاع الزمني"، وحين لم أكن أعرف هل غسلت رأسي أم لا كنت أعيد الكرة من جديد لتجنب الإصابة بالشك.
وحدث لي أن ترددت بين الطوابق الستة مرات عدة، لأنني في كل مرة عندما كنت أخرج كنت أشك في أمري هل أغلقت باب غرفتي أم لا؟ وفي آخر مرة عندما كنت أخرج من الشقة كنت أشك هل كنت في حالة اعتيادية أم أصبت بـ"الانقطاع الزمني"؟

فهل حدث لي أن ارتكبت جريمة قتل دون أن أشعر؟
ارتحت من هذا الأمر ســـريعًا: لو كنت ارتكبت جريمة قتل لعلمت الشـــرطة، وحتى إن لم أكن أعلم بأمري! فمادمت طليقًا، فهذه الفرضـية باطلة إذًا. في هذه الأثناء تذكرت "ميم أ ر" فجأة، فهل من الممكن أن أكون قمت بقتلها؟ فهي الشـخص الوحيد الذي عندما أثارت غضبي هددتها بسكين المطبخ وقد أعماني الغضب وقلت لها إن لم تعقل وتتركني سأقتلها.
بالتأكيد لم أقتلها بنفسي، فلو قمت بقتلها لكانت الشرطة تلاحقني. ولكن هل يمكن أن أكون تسببت بمقتلها بشكل غير مباشر؟
فجأة ضـاق صـدري، لأن "م أ ر" لم تسئ في حقي فحسب بل هي الوحيدة التي كانت تحبني حقًا. كنت أعرفها منذ سنين عدة، حتى قبل أن آتي إلى هنا. وفي تلك اللحظة كنت في بداية إحدى مهني العقيمة في حياتي؛ كنت أغني، ومؤخرًا قدمت حفلًا موســـيقيًّا في السفارة الإيطالية ويبدو أن "م أ ر" أعجبت به، وبنحو ما حصلت على رقم هاتفي، وهي التي لا تعرفني، وطلبت لقائي.
في اليوم الذي جاءت لرؤيتي، كالعادة كنت أقوم بحلاقة لحيتي أمام المرآة دون أن أرى وجهي. وكنت وضعت الصابون على وجهي تؤًا حتى أصـابني الهوس ثانية لأتلاعب بموقع المرآة. كنت مشـغولًا بعملي عندما رنَّ جرس شقتي؛ أرشدتها لغرفة الضـيافة وعدت سريعًا إلى الحمام.
كنت متحيرًا ماذا أفعل؛ فمادمت لم أنته من حلاقة لحيتي فإني لا أعي ما أفعله. وإذا قمت بالحلاقة فمن الممكن أن تأتي أثناء عملي وأرتكب حماقة وعندئذ يُكشف سري. كنت أقوم بدراسة جوانب العمل حيث ظهرت صورة في المرآة فجأة. دب الخوف في، فلم يكن الخطأ من مرآتي!
- لا تخف
حتى تلك اللحظة لم يدعني الخجل الذاتي أن أنظر إلى وجهها بصـورة دقيقة، فعندما رأيتها في المرآة أتيحت لي الفرصـة لأتمعن في وجهها للمرة الأولى. يا لهذا الوجه البهي!
أشعل انعكاس الابتسامة النيران في مرآتي: «مع هذا الصابون على وجهك صرت تشبه الكولونيل ساندرز!».
أعجبني كلامها، لا أعلم لماذا ولكن في الحقيقة كنت أتمنى أن أكون كولونيلًا. ربما لأن الكولونيل واجبه واضـــح. قضـــى مراحل العسـكرية الأولى الصـعبة والمذلة، وهو في وضـع جيد، له من المسـتقبل ما هو أفضـل. ربما للكولونيل أسـرار وغموض ليس لهما مثيل عند المراتب الأعلى أو الأدنى منه. في العسـكرية كلما كان المرء أقل رتبة كانت حياته معرضـــة للخطر أكثر، فالجندي يقاتل في الخطوط الأمامية أي يقاتل العدو وجهًا لوجه ولكن الضـابط يقف برتبته في مسـافة أبعد. والكولونيل بعيد جدًّا عن الموت (بالطبع إذا لم يقتل) بحيث ينظر إليه من الأعلى مما تقدم فكلما ارتفعت رتبة المرء ابتعد بالكم ذاته مسـافة عن الموت المباشر، ولكنه يقترب من موت آخر – الموت المفاجئ. فالكولونيل يقف في مسافة متعادلة بين صنفين من الموت.
مع ذلك فهي كانت تتكلم عن كولونيل خاص وليس الكولونيل بصـــورة عامة. قلت وكنت أتظاهر بأنني أرى نفســـي في المرآة: «الكولونيل ساندرز؟».
ظهرت يداها في طرفي صورة وجهها الجميل، وفي الوقت نفسه شعرت بثقلهما على كتفي.
- ذلك الذي صورته على محال بيع الدجاج الكنتاكي.
فجأة امتلأ الفضـــاء بريش أبيض وفخذ وصـــدر الدجاج، وعلى إثر هذا الاختلال تركت جبهات القتال مع الموت كي أعود لمرحاض شقتي مجددًا.
لم تعجبني فكرة ضـياعي لخيالاتي، فقررت فجأة أن أعمل شـيئًا يدعوها للفرار سـريعًا، فنظرت في عينيها مباشـرة وقلت لها: «هل ترينني في المرآة؟».
- لماذا؟
قلت وكأنني أتكلم عن الجذام: «أنا لا أرى نفسي!».
- أنا كذلك!
وأنا الذي فرحت بشدة من جوابها هذا، وقعت في حبها دون أن أسألها من المقصود بجوابها بالضبط: أنا؟ أم هي نفسها؟

٤

لم يكن ثمة لون في وجه الســيد، وذلك المغناطيس الذي كان يجذب الجميع نحوه قد توقف فجأة. مع أنه نادرًا ما كان يفقد ســيطرته على نفسه ولكن في المرات العدة التي حدثت، رأيت كيف يتحول ذلك اللون القمحي الذي يعطي نشاطًا لوجهه إلى اصفرار مرضـي ويتغير الانحناء الخفيف خلف الجفون والحاجبين، والذي يعكس عاطفة عميقة وروحانية على وجهه، إلى خطوط مكســـرة ومبعثرة ويتبدل الرأس ورقبته الممشـوقة الشـبيهة بالحصـان الأصـيل إلى بالون مثقوب بالإبرة يتكور كل لحظة. إذًا فهل كان هذا سـر حجر الثعبان؟
يبدو كأنه فهم من كيفية نظري ما يدور في ذهني فانقبض قلبه مرة أخرى؛ واضـطررنا أنا ورعنا أن نهتم بالخطوات الأولى قبل أي تساؤل حول أحداث تلك الليلة. وبمجرد أن جعلناه ينام على السرير حتى بدأت رعنا بتدليك صدره. وأنا أيضًا ذهبت صوب الهاتف.

كان مأخذ الهاتف خارجًا من المقبس، والمقبس كان قد أخرج من مكانه أيضًا. ما أن وصلت الهاتف قال السيد بصوت ضعيف ومتحشرج: «هل تريد أن تتصل من أجلي؟».
- عليك أن تحفظ رقم الإسعاف.
- لا، لا عليك، علي الذهاب.
قالت رعنا: «إلى أين بهذا الوضع؟».
- علي أن أذهب. ستقلق أنابيس.
كنت أعلم أنه إذا لم يذهب فليست هناك مشكلة؛ ففي الحقيقة كانا زوجين يعيشان مستقلين منفصلين عن بعضهما.
قلت: «ألا تعتقد أنها إن رأتك بهذا الوضع ستقلق أكثر؟ خاصة وقد تأخر الوقت وعليها أن تذهب إلى عملها في الصباح الباكر».
- إن لم أذهب ستقلق أكثر.
قالت رعنا: «وهل هي تعلم؟».
أخرج السيد علبة أقراص ليزانكسيا من جيبه وقال بصوت مخنوق: «كنت أتكلم مع أنابيس تلفونيًّا فحطم هذا المجنون البابَ ودخل».
قلت بصوت منخفض: «لماذا؟».
وضع عدة أقراص تحت لسانه وقال هو الآخر بصوت منخفض بينما كان ينهض: «وضع السكين على رقبتي وكان يسأل بشكل متواصل أين مهدي؟».
سألت رعنا والتي كانت معتادة أن تتكلم بصوت عالٍ: «ومن هو مهدي؟»، فأفهمتها بإشارة، أنه من الأفضل أن تتنازل عن سؤالها بسرعة حيث كنت خائفًا أن يخرج ذلك الغول من القمقم والذي دخله بألف مشقة.
حدقنا أنا والسيد ببعضنا مع خفض الأصوات فتشقق شيء في الجو. مع أن ذؤابة سكين بروفت لم تهرق دمًا ولكنها كسرت شيئًا لا يمكن ترميمه: الجدار الذي كان يحمينا. ينبغي الآن وزن كل كلام أو جملة تقال، وحسب حجم الخطر الموجود أو غير الموجود فيه وأن نجد لهجته المناسبة له.
نهض السيد وأخذ مفاتيحه وكنت أنا الذي أنهكت بشدة محتاجًا للوحدة من أجل إزالة سموم هذه الليلة المشؤومة. سألته بلا رغبة أيريدني أن أذهب معه؟ قال إنه سيذهب وحده وذهب وحيدًا. وعندما رجعت إلى غرفتي لاحقًا جاءت معي رعنا والتي كانت تنتهز أي فرصة لنكث الوعد الذي قطعناه لبعضنا البعض.
كنت أرغب في التمدد وألا أفكر بأي شيء ولكن رعنا كانت جالسة على حافة السرير. كنت محتارًا كيف أتخلص منها فنهضت من مكانها بعجلة مثل أم شعرت أن زوجها ذهب مرة أخرى إلى الحوض: «قلبه! لا ينبغي تركه وحيدًا. إذا انقبض مرة أخرى...».
ومن دون أن تنتظر جوابي وبذلك النعال والثوب الرقيق والذي لم يكن يناسب الجو البارد في الخارج، هبطت السلالم بقفزات قليلة ما جعلني أقول: «يا للأسرار التي تفضحها أقدامنا!».

٥

دقت ساعة كنيسة «سانت بول» والتي كان صليبها أمام نافذة غرفتي تمامًا، الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وإذ تصورت أنني أخيرًا سأنهي بورتريه إريك فرانسوا شميت كنت مرتميًا مرهقًا وغاضبًا على سريري الآن، وكنت أنهي بقايا هذه الليلة المرعبة، وأنا أعبث بأحجيات قد التفت مثل بكرة خيوط غير معلومة البداية والنهاية، والخيط الوحيد الواضح كان معلقًا بحيث انفصل عن البقية بأقل محاولة. ومن أي مكان كنت أبدأ كنت أتوصل إلى هذه النتيجة بأن مفتاح حل القضايا، لسوء الحظ، هو رأس الخيط المنفرد والمنفصل ذاته. كان علي اكتشاف من هو مهدي.
من بين المواطنين القاطنين في هذا الطابق، باستثناء علي، الذي لم يكن موجودًا في تلك الليلة أو كان موجودًا ولم يخرج من غرفته، كان الشخص الوحيد الغائب هو شاب ينادونه فريدون وكانت غرفته مقابل غرفتي تمامًا ومن الجهة اليمنى كان مجاورًا للسيّد ومن الجهة اليسرى جارًا لبنديكت.
كان فريدون وبروفت قد جاءا إلى هذا الطابق بنفس الوقت وبوساطة كلانتر. في الحقيقة مع مجيئي إلى هنا (والذي تم بجهود السيد الكثيرة)، تبدلت موازين القوى في الحرب التي كانت دائرة بين السيد وكلانتر، لصالح السيد مؤقتًا، وكلانتر الذي كان يشعر منذ فترة طويلة بأنه منزوٍ، رأى أخيرًا الحل في أن ينهي الحرب لصالحه من خلال جر فريدون إلى هذا الطابق من جهة بسفره إلى الوطن، وزواجه من فتاة شجاعة وضخمة ورياضية من جهة أخرى. وهكذا أصبح فجأة الممر الطويل للكوكب السائب هذا مجالًا لعبور ومرور النعال، السراويل التحتية وزبديات حساء الشعيرية. وشيئًا فشيئًا امتزج نقاش الديمقراطية والذي كان يدور ليلًا إما في غرفة فريدون أو كلانتر (ويشتد أحيانًا مع انضمام أشخاص آخرين إلى هذا الجمع، بشكل مثير) مع رائحة البصل المقلي ومهد الأرضية للمصائب الأخرى.

كان فريدون شـابًا مؤدبًا ولأن غرفتينا كانتا مفتوحتين على بعضـهما البعض، كنت أراه أكثر من بروفت. كان حنونًا جدًّا وكلما كنا نلتقي لم يكن يغفل عن اقتراح تنفيذ عمل لي أو خدمة لأجلي، خاصـة في أمري النجارة والبناء؛ حيث كان يعرف النجارة والبناء والسباكة أيضًا. وكان يملك لباس عمل مخاط بشكل جيد وعدة أدوات تدل على أنه كان يعتاش من هذه الأشغال. وهو الذي كان قد طلب مني مئة مرة أن يؤدي لي خدمة، والآن عندما حان وقتها، كان قد اختفى.

قررت فجأة أن أذهب في تلك الليلة ذاتها وأن أطرق باب غرفة بروفت للمرة الأولى. باستثناء الحوادث الغريبة لتلك الليلة فإن وجوده منذ البداية كان لغزًا بالنسبة لي. باستثناء مرة أو مرتين، منذ قدومه، لم يشارك في نقاش الديمقراطيين الشباب، خاصة فريدون. كنت أسأل نفسي: إنه لا يعمل فمن أين يعتاش إذًا؟ ولم يكن من جماعة المشغوليات الفكرية فلم يسهر حتى الصباح إذًا؟

العلامات الوحيدة التي كنت أستطيع أن أرسم بمساعدتها تخطيطًا مبهمًا لشخصيته كان أولها الصوت النشاز لنحنحته (والذي كان يتكرر مرة كل عدة دقائق)، وثانيها كان صوت تصادم سريره الخشبي مع الجدار والذي كان يحدث بين الفينة والأخرى (والذي كان من الممكن أن يكون علامة قيامه أو جلوسه) وثالثها كان صوت وقوع شيء مثل كرة زجاجية على الأرض بين الفينة والأخرى. ومع أن هذا كان غريبًا وغير مفهوم ولكن الأكثر غرابة كان صوتًا يُسمع في أغلب الأحيان، خاصة منتصف الليل، وكان يوحي وكأن هناك شخصًا ما منشغل بنفض الجدران بمكنسة. تصورت في البداية أنه يدهن غرفته ولكن مع استمرار الحادثة قلت لنفسي: «ولكن دهان غرفة ذات عشرة أمتار كم يحتاج من وقت؟».

والآن كل هذه العلامات المبهمة وغير المفهومة مع كل تلك الأسئلة التي بقيت بدون إجابة كانت تدور كدوامة في رأسي وتعذبني. إذا لم يكن يفهم لمَ وضع بروفت سكينه على عنق السيد، وإذا لم يكن مفهومًا من هو مهدي، وإذا كانت علاقة هذين الأمرين ببعضهما البعض هي مجهول آخر فإذًا ثمة أمر واضح على الأقل: إن هناك من اتهم بروفت بالمثلية. ومع أن علاقة هذين الأمرين مع المجهولين الآخرين لم تكن قابلة للفهم، ولكن مع القليل من التساهل، نستطيع أن نستنتج أن هذا الشاب الغيور التقليدي غلى دمه بسبب الاتهام الخسيس الذي وجهه أحدهم إليه وأراد أن يستعيد اعتباره الملوث. في هذه الحالة من اتهمه بهذه التهمة؟ السيد؟ لم كان يبحث عن مهدي إذًا؟ أنا؟ لم ذهب عند السيد إذًا؟

كان رأسي يؤلمني بشدة. فكرت في أن أذهب إلى المطبخ وأبتلع قرصًا مسكنًا، ولكن ما أن نهضت حتى لفت انتباهي صوت. كان باب إحدى الغرف مفتوحًا وكان يأتي زوج نعال من نهاية الممر تجاه غرفتي.

إن المرء بعد فترة من العيش في غرف السقيفة سيعرف الجميع من صوت أقدامهم شيئًا فشيئًا. كان كلانتر من يأتي، مرت النعال أمام باب غرفتي وتوقفت أبعد قليلًا. طرقت عدة طرقات على باب غرفة بروفت.

أصخت السمع لا إراديًّا.

٦

كلا، لم أكن أمام المرآة. أيحتمل أن تكون هذه صورتي الضائعة ذاتها عندما كنت في الرابعة عشرة؟ شعرت للحظة أنني أصبت بالجنون. وهل الحدود بين الجنون والوعي، بالنسبة لشخص مجنون، هي حدود واضحة؟ كل الذين فقدوا توازنهم العقلي يخطون في مسار تسمى نهايته الجنون. ولكن أين هذه النهاية؟ من دون شك يتوقف بعض الأشخاص بعد القليل من التقدم في هذا المسار وإذا كانت الأجواء مناسبة سيواصلون الطريق المطوي شيئًا فشيئًا. ولكن هذه النهاية، هذه الحدود بين الوعي والجنون، مادمنا لم نعبرها ليست واضحة المعالم، وإذا اجتزناها هل سنكون مطلعين عليها؟ بالتأكيد هذا الأمر واضح بالنسبة للآخرين، ولكن كيف هو الأمر بالنسبة لنا؟ ألم تروا المجانين الذين يحذرونكم بأنهم ليسوا مجانين وأنتم، أنتم جميع المتفرجين، ضحكتم عليهم؟ إذًا، أمن الممكن أن أكون اجتزت هذه الحدود، هذه النهاية ولم أكن أعرف؟ صحيح أنه إذا وضعوا ملفي أمام طبيب نفساني فإنه سيلملم نفسه بمجرد وجود هذه الأمراض الثلاث إياها أي «الانقطاع الزمني»، «تهديم الذات»، و«مرض المرآة» بحيث يبدو كأنه يواجه حالة مستعصية جدًّا؛ ولكن مع كل هذا لم ينادني أحد مجنونًا بعد. ولكن ماذا عن الآن؟ الآن إذ طرقت ضربة على الباب وما أن فتحت الباب حتى رأيتني أمام شخص يشبهني، يشبه آخر صورة لي رأيتها في المرآة.

تراجعت بدون قصد، وعبر، من دون أن يتبادل الكلام معي، الباب. وأغلق الباب ورفع الكرسي وجلس هناك أمام الباب؛ في الصمت المطبق، محدقًا بي.

قلت: «حضرتك...»، ولم أستطع أن أنهي جملتي. بالنحو الذي كان ينظر فيه كان يتبين فقدان معنى أي سؤال قبل أن يُطرح.

مثل شخص يبحث عن شيء مجهول بين الأثاث المغبر لمستودع مهجور، كنت أبحث بلا توقف عن جواب بين ذكرياتي المبهمة والمنسية لسؤال لم يتضح لي بعد.

حدقت فيه، كان ينتشر من كل وجوده شيء في الجو كان يقول لي إنه هو شخص من لحمي وجلدي ومن نوع وجودي. التمتمات الخفيفة والآنية لشفته العليا كانت تحكي عن ألم لا يتسع لحجم جسده وترتعش. فكرت في النهاية أن أصرف النظر عن أي سؤال عبثي حول هويته وبدلًا عن ذلك أن أقدم له، شيئًا ما، وهو الذي كان

يبدو مرهقًا وقد جاء من طريق بعيد: «لا بد أنك عطشان».
نظر إلي فقط، قلت: «إن مطبخي في تلك الجهة من السلالم. من الأفضل أن أجلب مشروبًا غازيًّا باردًا». ونهضت كي أذهب عندها رفع يده اليسرى.
جلست لا شعوريًا، طوال هذه الفترة كلها كانت يده اليمنى في جيب سترته. وبسبب أنه أشار إلي بيده اليسرى أن أجلس لفت انتباهي إلى يده اليمنى التي قد انقبضت بحيث تبدو وكأنه يعصر بها شيئًا.
كان يمكنني التفكير بأن دوري قد حان، وهذا مبعوث من المبعوثين العديدين والذين ظهروا هذه الأيام في كل المدن. ولكن شبهه بيّ، الذي لا يحتاج إلى برهان، جعلني أشك. والآن بالنحو الذي رفع يده اليسرى وتلك الحركة المعروفة التي أعطاها لحاجبيه بشكل متزامن، خطرت في بالي فكرة مثل وجه يخرج للحظة من صرة ما. وعندما نظرت جيدًا رأيت مع أنه كان يشبهني إلا أنه كان فيه شيء يذكرني بـ«م أ ر». خطرت في ذهني فكرة جنونية للحظة: أيحتمل أن تكون «م أ ر» قد حملت مني ولم أكن أعرف ذلك؟
المرة الأخيرة التي رأيتها كانت قبل خمسة عشر عامًا، حيث كانت تعتمد على عادتها الشهرية وقواعد الطبيعة النسوية لدرء الحمل. ولم تستخدم الحبوب ليس في هذه الحالة فحسب وإنما في كل الحالات. في تلك الليلة قالت إن هناك احتمال الخطر وطلبت أن أفكر بحل ما، وأنا الذي لم أكن أتوقع شيئًا ما، انسحبت خائبًا ويائسًا وحدقت بالسطح المتموج لجبصين السقف بحثًا عن شيء مبهم وغير واضح.
كانت تعرف أنها الليلة الأخيرة وكانت تعلم أنه يمكن أن يكون هذا آخر لقاء بيننا. ما أن رأت وجهي المهموم أحاطت رقبتي بذراعيها وحضنتني بقوة: «أتمنى ألا يحدث شيء، وإذا حدث فليكن!».

٧

- أعرف أنك مستيقظ، افتح الباب.
لم يأت الجواب مرة أخرى، عندما ألح كلانتر للمرة الثالثة سمعتُ صوت بروفت والذي قال بلحن قاطع: «دعني وشأني!».
عاد كلانتر إلى غرفته، فانتبهت للمرة الأولى كم هي رقيقة هذه الجدران للأشخاص الفضوليين، حيث كنا عراة أمام بعضنا البعض طوال هذه الفترة، وكنا نتصور في إطار غرفتنا أننا بعيدون عن عيون الغير. صحيح أنه عندما كان كلانتر وزوجته يتغازلان كنا جميعنا نشفق على مصائب الزوجة، وما لم تنته تأوهاتها وأنينها المؤلم لم يكن يطاوعنا قلبنا أن نعمل. صحيح أنه كلما يرتفع من غرفة رقم ٩ - والتي كانت في نهاية الممر وأمام غرفة ميلوش تمامًا- صوت أوبرا كارمن جورج بيزه، كنا نفهم جميعنا أمانويل – الفتاة التي كانت تعيش مع أهلها في الطابق الثالث- جاءت الآن كي تنتفع بعيدًا عن عيون الآخرين من محاسن فن الأوبرا مع صديقها جان. صحيح أنه كلما كان بروفت يسعل كان يعبر شيء خشن وحاد من جدار الغرفة ويخدش طبلتي أذني. ولكنني لم أكن أتصور أبدًا أن يُسمع الحوار الاعتيادي لشخصين بهذه السهولة. صحيح أنني كنت فضوليًّا في تلك اللحظة، وفي أوقات أخرى لم أكن عاطلًا عن العمل حتى أعرف ماذا يقول الآخرون، ولكن إذا كان هناك شخص في الجهة المقابلة من الجدار أكان فضوليًّا وعاطلًا عن العمل؟
كانت لدي حالة شخص أدرك فجأة ما كان يتصوره أربعة جدران آمنة هي مشهد مسرح والشيء الذي كان يتصوره جدارًا ساترًا هو زجاج ذو رؤية من جانب واحد حيث جلس حشد في الجانب المقابل يتفرجون.
بدأت بدون وعي بمرور كل الأشياء التي حدثت طيلة هذه الفترة.
لم أكن أملك شيئًا خاصًا غير «مرض المرآة» كي أخفيه، ولكن لكل شخص أسرار صغيرة نوعًا ما يأخذها معه إلى القبر. هناك أيضًا أسرار نحاول ما بوسعنا أن نخفيها عن عيون الآخرين، مثل شخص ذي ستة أصابع يحاول دومًا إخفاء إصبعه السادس.
كنت أحاول الآن أن أتذكر أيًّا من أصابعي الستة قد عرضتها لبروفت. بدون شك حادثتي مع رعنا لا أفخر بها. أيعني هذا أن بروفت يعرف كل ما حدث بيني وبينها؟
اصطدم سرير بروفت بالجدار عدة مرات وأصدر صوت طقطقة.
أصخت السمع، كان يأتي صوت ناعم ومتواصل لشيء مثل وقوع كرة زجاجية صغيرة. كنت أترقب حدوث شيء غير مسرّ في كل لحظة، ولكن الصوت الآخر الذي كان يلتف متزامنًا في الأدراج أخرجني من التشويش: الأقدام التي هبطت درجات الطوابق الستة بارتباك قبل ساعة – كل عدة درجات بقفزة واحدة- كانت تصعد الآن بثقل وتراخٍ.
نهضت من مكاني مسرعًا، بالوضع الجديد الذي حدث. لم يكن يخلو تكلمي في هذه الغرفة من المجازفة؛ حتى الكلام المبتذل، إضافة إلى ذلك لم أكن أريد أن أتصرف بدون حذر. منذ عشرين يوم حيث اضطرت رعنا إلى أن تنام في المطبخ كانت تحاول أن تأتي إلى غرفتي بأية ذريعة. لم يكن ذنبها، فمطبخي كان غرفة عارية حيث كان هناك سرير قديم في زاوية منها، وجدرانها المزيتة المنتفخة تجعلها مقززة. في حين أن لهذه الغرفة سجادة جميلة تعطيها جوًا دافئًا، وإذا أصاب المرء الملل كانت هناك كتب في متناول اليد، وأيضًا كان بالإمكان الاستماع إلى لموسيقى. كنت أدرك هذا الأمر جيدًا، ولكن نظرًا إلى ما حدث بيني وبينها، لم يكن هناك حل آخر.

كان وقع الصـــوت المتراخي والثقيل لأقدام رعنا قد اقترب تمامًا. أخذت المفتاح وذهبت إلى المطبخ، وعلى هذا المنوال، كلما أردت كان بمقدوري أن أقول لها طابت ليلتك وأعود إلى غرفتي.

٨

كلا، لم أكن قد قتلت أحدًا. حتى حين جاءت «م أ ر» عندي مرة أخرى، وبمجرد أن تناولت ســـكين المطبخ تركتني وشـــأني فقلت مدافعًا عن نفسي: «القتل؟ أنا لم أصفع أحدًا في حياتي».
فقال فاوست مورناو ببرود: «القتل، ونشر الأكاذيب والإخلال بالأمن!».
كنت قد وقعت في مستنقع ضخم ومع كل محاولة كنت أغرق نفسي أكثر. ولأتمكن من التعلق بقطعة خشب قلت: «على أي حال لا أظن أنك ستعيدني إلى هناك بلا سبب!».
كانت نيتي من قول هذه الجملة أن تقام لي محاكمة على الأقل لأتمكن من الدفاع عن نفسي». إلا أن الوضع ساء أكثر مما كان علي.
- لن يعيدوك بهذه الصـورة بالتأكيد، وسـيكون هناك عقاب أسـوأ في انتظارك لأنه بالإضـافة إلى كل ذلك فإنك ارتكبت ذنبًا آخر لم يحدث من قبل.
سألته مستغربًا: «أي ذنب؟».
- لقد أمضيت عمرك بالكذب والخداع بل ولم تتوقف عن تضليل الآخرين حتى هنا.
فقلت عاجزًا: «أي تضليل؟».
بينما كان فاوســت مورناو يريني كتابي قال: «بما أنك كنت تعرف أن هذا اليوم قادم فقد اســتبقت الأحداث برأيك وكتبت صـــحيفة أعمالك سلفًا كما تشاء وترغب لتحرف الأذهان عن ما حصل فعلًا».
فقلت: «عفوًا، هل هذه محاكمة أم بحث نظريات النقد الأدبي؟».
فقال الذي بجانبه: «لا تظن أنك تستطيع استغلال جهلنا هنا بمواضيع الأدب وتغير مسار المحاكمة!».
أضـاف فاوست مورناو قائلًا: «لقد اعترفت بنفسك بارتكاب جريمة القتل في هذه المذكرة التي كتبتها على كتابك. في النهاية حاولت أن تلوث أصل القضية بجر قدم هذا وذاك. لقد كتبت: من القاتل؟ السيد الكسندر؟ المجنون قبالتنا؟ (وقصدك هنا بالمجنون قبالتنا نفس بروفت) ابني؟ أم خاتون، امرأة أينما ذهبت حملت رسالة الموت معها؟».
قلت: «أنا أثق بمخيلتي أكثر مما حدث فعلًا، وذلك من أجل أن أدرك الحقيقة. وأنت تعرف أن حديث الناس وتصرفاتهم مجرد غطاء لإخفاء ما يوجد في مخيلتهم».
قال فاوسـت مورناو: «كنت تسـتطيع أن تكون وتصـف الآجر إلى الأعلى من الصـباح حتى المسـاء وإن كنت قد ارتكبت إثمًا فإن الآجر سيتهدم على رأسك فقط. لكنك خربت حياة مجموعة من الناس بالخيالات التي نسجتها».فقال صـديقه إلى جانبه: «لقد اتهمت ذلك المسكين الذي ألقى بنفسه في الماء والنار من أجلك بالجنون!».
قال فاوست مورناو: «لقد مات إريك فرانسوا شميت من الغم عندما قرأ كتابك!».
قال الذي بجانبه: «أما رعنا فقد ألقت بنفسها تحت القطار لشدة انزعاجها!».

٩

استيقظت من نومي كالعادة في الساعة الثانية بعد الظهر. فكرت أن أشتري باقة من الزهور بعد أن أغسل وجهي وأذهب إلى المقبرة ثم أمر على مأوى العجزة. حين أردت أن أدير المفتاح في قفل باب المطبخ تذكرت عادة دق الباب مؤخرًا إلا أن رعنا – التي تعلمت أن تميز صوت الخطى مثل الآخرين شيئًا فشيئًا، وكما فهمت فيما بعد فإنها كانت تراقب الممر من فتحة القفل – فتحت الباب في وجهي.
لم أفهم معنى حركتها هذه فتناولت الإبريق حسب عادتي لأملأه قبل أن أغسل وجهي وأضعه على النار. فقالت رعنا: «من فضلك دعنا نذهب إلى الخارج».
كانت ترتجف، وبينما كنت أمسك الإبريق تحت حنفية الماء قلت لها:«ماذا حدث؟».
- دعنا نذهب إلى الخارج. لا أستطيع أن أتحدث هنا.
ليلة الأمس حين رافقت السـيد حتى منزل زوجته، لم يكن عندها ما تقوله عندما عادت. فما الذي حدث في هذه المدة حتى تصـر إلى هذا الحد؟
ظننت أنها تحدثت مع السـيد في هذه المدة القصـيرة ليلة أمس ولم يكن من المناسـب أن تتحدث معي في نفس الليلة. في الواقع كنت أحس منذ فترة أن هناك شـيئًا ما سـيحدث. في مثل هذه الأوقات هناك حوادث مثل حادثة ليلة أمس تقوم بدور مسـاعد سـرعان ما

يكشف أشياء كانت مخفية. لا أخفي أنني لم أكن راضيًا عن القرائن الشخصية المتعلقة بوقوع هذا الأمر. مع ذلك كله كنت أعلم أن وقوع ذلك حتمي. منذ فترة طويلة كنت أنتظر مثل هذا اليوم. قلت ببرود: «حسنًا، انتظري حتى يجهز الشاي ثم نذهب».
أقلقني جواب رعنا: «أرجوك! تناول ما تريد في المقهى!».
كانت شـــاحبة ومضـــطربة ويداها ترتجفان مما جعلني أفكر بأمور مقلقة. وقفت متفاجئًا، فأخذت الإبريق من يدي بحالة مؤثرة ووضعت يدها على ظهري بلطف ونوع من الطلب وقادتني إلى الحمام: «أرجوك اغسل وجهك، ودعنا نذهب بسرعة».

١٠

كانت هناك عيوب كبيرة وصـــغيرة لعدم رؤيتي نفســـي في المرآة. العيب الصـــغير هو أن وجهي كان دائمًا مجروحًا لأنني كنت مضطرًا إلى حلاقة ذقني كيفما اتفق، والأسوأ من ذلك بما أنني لم أكن أستطيع أن أرى آثار الزمان على وجهي كنت أتخيل أنني في الرابعة عشر (مما جعلني أتصرف كالأطفال على عكس سني). والعيب الكبير هو أنني وقعت في حب «م أ ر» وهيأت مقدمة قتلي بيدي.
إلا أن هذا المرض كان له امتياز كبير. كان مختبرًا مميزًا يمكن من خلاله فهم بعض الأمور. كنت أعاني من اليأس في كثير من الأحيان وعدم الإحساس النفسي والجسمي بحيث يبدو ابلوموف كشخص نشيط مليء بالحيوية. لم تكن هناك عظمة في أي شيء وكلما نظرت إلى شيء ما كنت أرى عيوبه من النظرة الأولى.
في إحدى المرات قال لي رجل عجوز وكأنه فهم ألمي بنظرة واحدة: «حاول أن تحب شيئًا، لا يهم ما هو هذا الشيء الله أو امرأة أو الموسيقى أو حتى الشراب والمخدرات، ولكن أحب شيئًا ما!».
لقد تركت الغناء سلفًا لأنني لم أتمكن من ترك متاع السجائر والشراب. كان الشراب والمخدرات مهدئًا، إلا أن الإنسان يستطيع أن يستهلك المسكن ولكنه لا يستطيع أن يحبه لذلك حاولت أن أحب شخصًا ما.
أما هذه النظرية، على الرغم من أنها كانت الحل الوحيد لآلام الذين هم مثلي فهي مثل غيرها من النظريات فيها عيب أساسي: حين يتبدل ذلك الشيء المحبب إلى أساس العالم يجب أن يكون مثل كل كمال مطلوب خاليًا من العيوب ولم أكن أستطيع إيجاد مثل هذا الشـــخص حتى عندما كنت ألتقي بامرأة وأظن أنها الكمال المطلوب أبدأ بالبحث منذ البدء عن عيب فيها وكنت دائمًا أنجح في إيجاد واحد لذلك كنت دائمًا أصاب بيأس مطلق وكلما أصبت بيأس مطلق كانت تلك المرآة تنجيني كان يكفي لي أن أشك بأنني على قيد الحياة عندها كنت أذهب وأقف أمام المرآة وأقول لنفسي: «أترى؟ إنها لا تظهر انعكاسك. أيعني هذا أنك لم تصبح شيئًا بلا روح بعد؟».
هذا المختبر المميز الذي أنقذني من اليأس عدة مرات ساعدني بعد ذلك في اكتشاف أمر مهم آخر.
مضت مدة لم يكن فيها أحد أعضاء جسدي يعمل جيدًا. في أحد الأيام كنت مكتئبًا جدًّا فقلت لنفسي: «من الأفضل أن أستعين بالمرآة. إن كان ميتًا فيجب أن تظهر انعكاسه».
ذهبت بسرعة إلى المطبخ أزحت الستارة ووقفت أمام المرآة لم تكن مرآة الحمام كبيرة بما يكفي لأتمكن من الوصول إلى ما أريده من دون متاعب وكنت على معرفة بعلم الفيزياء لأعرف أن علي الرجوع إلى الوراء بعض الشيء لأتمكن من الحصول على زاوية رؤية مناسبة. إلا أن مطبخي كان غرفة صغيرة ولم تكن التكنولوجيا الجديدة قد تقدمت إلى الحد الذي يمكنني من إرجاع الحائط إلى الوراء مثل الرسوم المتحركة بسهولة شرب الماء. وما جعل الأمور أصعب أنني لم أكن قد رأيت انعكاسي في المرآة لذلك لم يكن من السهل معرفة أي جزء من جسدي كان في إطار المرآة.
وبالتالي بالانتباه إلى بعض الحســـابات الرياضـــية المتعبة صـــعدت على كرســـي وأخذت أتحرك باحثًا عن وضـــعية توفر الرؤية المطلوبة. في النهاية وقعت عيني على انعكاس العضو المطلوب في إحدى أصعب الوضعيات وبنفس الوقت أكثرها إضحاكًا.
جلست على الكرسي حزينًا وحدقت بنقطة غير واضحة في الفراغ وعلى الرغم من أن علماء النفس والاجتماع قد قالوا إن هذا أحد عوارض النفي واعتبروا ذلك علة العلل لانفصـــال الأهل في الغربة ومع أنني كنت أعرف منفيين كثرًا حولي مصـــابين بعوارض شبيهة لهذه كانت هناك قوة غامضة تقول لي أن شخصًا آخر حدد سوء الحظ.

١١

كان السيد يعرف عاداتي جيدًا وكان يراعيها بدقة خاصة، كان يتصل على الأغلب في الساعة الثانية أو بعد ذلك بقليل حتى أكون قد استيقظت تمامًا. في ذلك اليوم أيضًا اتصل حين كنت أربط حذائي لأخرج مع رعنا كما اتفقنا. أراد أن يعرف كيف هي الأوضاع.
كنت خائفًا ولم أعد أثق بتلك الجدران الورقية لذلك سألته إن كان يتصل من منزل أنابيس؟ فقال نعم، فقلت له أنني سأتصل به بعد بضـــع دقائق بعد أن ذهبنا إلى مقهى «الفنارات» وأخبرتني رعنا بلمحة عما حدث، اتصـــلت بالســـيد من داخل المقهى فأتى إلينا بسرعة.
كان هناك رجلان ســمينان وأصــلعان يشــبهان البطاريق على الرصــيف أمام المقهى يرقصــان على لحن أحد أفلام «تكس آوري» ويغنيان قصائد هجو وفرح. وكان صوت طقطقة نعال أحذيتهما على الرصيف يكسر جو الرعب والذعر الذي خلقته رعنا.
كانت رعنا ترتجف طوال الوقت أثناء حديثها. وكنا أنا والســيد نحدق ببعضــنا بصــمت. كان علينا أن نفكر. لم يكن هناك شــك أن حوادث ليلة الأمس كانت بداية ما سيحصل وكان علينا أن ننتظر الأسوأ.
قال السيد: «لم يعد عندي جرأة أن أذهب هناك».

جعلني كلامه أشعر بإحساس غريب ومتضاد. من ناحية كنت سعيدًا أن ما فعله بروفت أوجد حاجزًا بطريقة ما في مسير أحداث مؤلمة بدأت بدخول رعنا. ومن ناحية أخرى كانت فكرة إفساد جولة الشطرنج الليلية تؤذيني، الجولة التي كانت بالنسبة لي بمثابة مخدر يسهل علي تحمل مدة النفي المتجمدة. قلت: «ربما من الأفضل أن نذهب ونتحدث معه».
قالت رعنا: «أي حديث؟ فذاك الرجل مجنون تمامًا!».
وعلى أساس المعلومات المختصرة التي حصلت عليها من هذا الشخص ومن ذاك كنت أعلم أن بروفت تزوج بامرأة فرنسية وأن لديه صبيًّا منها وأنه تركهما منذ سنة وبعد مدة أتى إلى هذه الغرفة مشردًا.
قلت: «أي شخص آخر يحبس نفسه في الغرفة ليلًا ونهارًا من المحتمل أن يجن. يجب أن نعرف مم يعاني».
قالت رعنا: «وما علاقتنا بذلك؟».
قالت جملتها تلك كأن جميع الأحداث تقع على عاتقي ثم أضافت أيضًا: «وهل كنا سبب تعاسته ليضع سكينه على رقبة أحدنا ويثير الرعب في قلب الآخر؟».
قال السيد: «كان يجب أن نبلغ الشرطة حينها».
فقلت: «كانوا سيحبسونه أو يأخذونه إلى مستشفى المجانين».
فقالت رعنا بتنفر وحقد خاص: «سيكون هذا رائعًا!».
قسمتنا فعلة بروفت بوضوح إلى جبهتين: كانت الجبهة الأولى تتشكل من رعنا والسيد والجبهة الأخرى مني. كنت أرى في تقسيم الجبهات هذا معنى خاصًا يشير إلى معركة أخرى وراء الأفق وكنت بموقفي المناسب من بروفت أساعد على تقوية الجبهة المقابلة أكثر فأكثر. وكأنني أردت باللاوعي أن أنتشل صورة الحرب الخفية تلك من الأعماق إلى السطح للتوحد مع صورة الحرب الواضحة هذه، لذلك كانت شفقتي على بروفت تزيد من حدة غضب وتنفر رعنا كل مرة وكان معها حق. لقد أمضت الليل بأكمله خائفة ترتجف وقد انهك التعب وعدم النوم أعصابها بشدة. ويبدو أن بروفت كان قد كمن طوال الليل وراء باب غرفتها.
كان صوت خطى بروفت يختلف تمامًا عن الجميع. كان يخبط بقدمه بقوة على الأرض ويمشي بسرعة وكأنه يشق الهواء. في تلك الليلة أنا أيضًا سمعت صوت ذهابه وإيابه غير العادي في الممر لكنني ظننت أنه يذهب إلى الحمام لشدة تأثره وعذاب ضميره. في إحدى المرات حين كنت ذاهبًا إلى الحمام رأيته واقفًا في تجويف الدرج خلف جدار مطبخي بالضبط. في البداية استغربت ثم ظننت أن لديه ما يفعله مع كلانتر ولابد أنه طرق بابه وقد وقف بانتظاره جانبًا بدافع الخجل والحياء، ثم حين رأيته يروح ويجيء هكذا حتى الصباح قلقت، إلا أنني في الحقيقة لم أجرأ على الذهاب وطرح الأسئلة.
قالت رعنا أن بروفت حين مر أول مرة طرق باب المطبخ بقوة بعد ذلك بينما كان يروح ويجيء في الممر كان يطرق الباب وكانت رعنا تصاب بالذعر كل مرة. قلت لها:«لماذا لم تخبريني؟».
قالت: «خفت أن أصدر صوتًا فيكسر الباب ويفعل بي ما لم يستطع فعله بالسيد».
كنت أسمع كل ذلك مذهلوًا وأرغب بأن أؤمن بأن عذاب الله حق.
أحاط ذلك السكوت الغامض طاولتنا بهالة وأبعدها عن جو مقهى «الفنارات» مثل سفينة هائمة بلا مرساة، كان كل شخص يفكر في مستقبله بطريقة ما. مستقبل كان له مفهومه الخاص بشكل قاطع عند واحد وغير موجود عند الآخر. كان تفكيري الوحيد بالمستقبل هو رقعة الشطرنج ولأجعل السفينة ترسو؛ قلت: «ربما من الأفضل أن نخبر إريك فرانسوا شميت بما حدث».
لوح السيد بيده في الهواء قائلًا: «ليس منه فائدة».
- لقد أعطى الغرفة الجانبية مؤقتًا لبروفت. إن علم بالأمر قد نتخلص من شره قريبًا.
- لو كانت هناك أي فائدة من إريك فرانسوا شميت لما كان وضع البناء على هذا النحو!».
كان يقول الصدق. لم يكن هناك بناء في هذه المدينة هيكله أو أبوابه رديئة أو ليس له قفل رمزي، أما بناؤنا فكان بابه مفتوحًا، ليس ذلك فقط بل ولم يكن له قفل أصلًا، ولم يكن يغلق حتى، في الشتاء كان الدرج ملجأ للمتشردين والسكارى اللا مبالين وحين كان أحدنا يريد الصعود إلى الأعلى كان عليه أن يبحث عن موطئ قدمه مثل متسلقي الجبال خوفًا من أن يركل أحدًا. وحين كان إريك فرانسوا شميت يرى هذا كان لا ينزعج بل وكان يشعر بالرضا من كل قلبه.
كان رجلا البطريق يشبهان بعضهما بشكل غريب وكانا الآن يدوران وسط الناس في المقهى ويجمعان النقود.
كانت هناك قوة غامضة تستدعيني إلى غرفتي فنهضت فجأة.
قال السيد متفاجئًا: «إلى أين؟».
- تذكرت أن لدي عملًا ضروريًا!

١٢

مضت عدة أيام لم يصدر فيها صوت أوبرا كارمن من غرفة أمانويل. كنت أظن أنهما ذهبا إلى مكان ما ولكنني كنت قد رأيت صديقها جان منذ ساعة خارجًا من الحمام وبمجرد أن رآني تسلل مرتبكًا من طرف الباب إلى الغرفة.
ولم يكن هناك أثر لأذكار علي المرتبكة أو أنين زوجة كلانتر المؤلم. ولو لا صوت كمان ميلوش المتجانس والذي كان يصدر بين الفينة والأخرى لكنت ظننت أن بنديكت أثارت جلبة مرة أخرى. وفي النهاية عندما أتيت وقعت عيني على إصدار جريدة الحائط الأخير لهذه المجرة المجنونة «الممر ليس مكبًا لأكياس القمامة وكل من لا يفهم ذلك من الأفضل له أن يذهب إلى الجحيم (ويذهب إلى مكان آخر)!».

لم أكن أضع كيس القمامة في الممر. لكنني كنت قد توصلت إلى هذه النتيجة أنني من الأفضل أن أذهب إلى الجحيم وأذهب إلى مكان آخر. بغض النظر عن الأحداث الأخيرة فإن تصرف بنديكت بدأ يتحول شيئًا فشيئًا إلى تعذيب مضن وربما كنت الوحيد الذي لم أستسلم له حتى الآن. وذلك لأنني كنت أتقي الصدام معها قدر المستطاع. وحين كنت أريد الخروج من الغرفة في البداية أقف متنصتًا، وإن كانت في الممر كنت أنتظر حتى تعود إلى غرفتها. في النهاية لقد أرعبتني منذ بداية إقامتي. كانت الليلة الأولى أو الثانية من إقامتي، خرجت من الغرفة قبيل الفجر لأذهب إلى المطبخ؛ وبما أن زر مصـــباح الممر كان يقع بعد غرفة بنديكت، كان عليّ أن أقطع مسافة في الظلام لأصل إلى الزر. وأمام غرفة بنديكت علقت قدمي بجسد ما صرخت لوهلة مرتاعًا وأشعلت المصباح. كان هناك رجل ثمل متمدد أمام غرفة بنديكت. فتح عينيه الحمراوين والمتورمتين للحظة ونظر إلي.

منذ ذلك الحين وأنا أحذر ليلًا. تقريبًا عند منتصف الليل كان الرجل الثمل يأتي إليه ويقرع الباب: «لو سمحت يا بنديكت»...

لم تكن بنديكت تجيب فيتمدد الرجل عند بابه ويستيقظ بين الفينة والأخرى ويقرع الباب ثانية: «الجو بارد. أرجوك. أرجوك».

وحين كان صوت قرع الباب يعلو كانت بنديكت تفتح الباب بعنف وتصرخ قائلة: «اذهب إلى الجحيم أيها اللعين! لقد تحملتك كل هذه السنوات».

ثم أسمع شتائم وصوت ركل ووقوع شيء على السلالم وكأنه كيس بطاطس.

وبعد عدة أشهر اختفى الرجل الثمل إلى الأبد. ولكن تشنج بنديكت بقي كما هو، إلا أنه كان يختلف عن تشنجها المعتاد بكونه غير متوقع. كانت أحيانًا تطرق أبواب الجيران يمينًا ويسارًا وهي تصيح وتشكو. ومع أنني كنت مستيقظًا لم يكن يصل إلى مسامعي أي صوت وهي التي كانت نائمة وكان نومها ثقيلًا كانت تدعي أن الضجة أيقظتها.

وبعد مضي مدة من اختفاء الرجل قررت بنديكت أن تنشر جريدة حائطها في الحمام «الرجاء تنظيف المرحاض بعد استخدامه». لم يكن هناك أحد يعير اهتمامًا للإصـــدار الجديد لجريدتها ولكن لحن كلامها أصـــبح أكثر حدة رويدًا رويدًا «كل من لا يعرف كيف يستخدم المرحاض ليأكل الخراء حين يضع قدمه هنا!».

كانت الكتابات المهينة التي تنشرها في الحمام تثير أعصاب الجميع ولكن في الحقيقة أصبحت أحداث المرحاض القذرة بالنسبة لنا مسألة مهمة. كان الكل يتساءل من قد يفعل هذا؟ كان الجميع يدعون أنهم لا ينظفون المرحاض فحسب بل ويعقمونه مرتين في اليوم وكانوا جميعًا يقولون الصـــدق؛ كما أن وجود هذه الكتابات كان لغزًا وإلا فإن الجميع كانوا يعزون الكتابات إلى بنديكت ولكن خطها جميعها كان مختلفًا.

في إحدى المرات أمسكت بنديكت بياقة السيد الذي كان خارجًا من غرفتي، وقالت له: «عندما تدخل نظفه جيدًا، يا سعادة الأمير!».

أصبح لون السيد أبيض مثل الكلس وعقد لسانه. كان المسكين يحاول عدم استخدام مرحاض الطابق قدر الإمكان. كان محترمًا لدرجة أنه إن كان مضـــطرًا فيذهب إلى مرحاض مقهى ما ويقضـــي حاجته هناك. بالطبع لم أكن أتمتع بمثل هذه الأخلاق فلم أكن أذهب إلى المقهى أو أعترض، بكل بساطة كنت أنظف المرحاض قبل وبعد استخدامه.

في الصيف أصبح الوضع غريبًا فلم يبق في الطابق إلا أنا وبنديكت ومع ذلك بقي لغز المرحاض موجودًا في مكانه.

وفي أحد الأيام حين اســـتيقظت من نومي ذهبت إلى المرحاض وما إن فتحت الباب أصـــبت بالغثيان وللحظة خطر لي أن أعود وأعيش ذلك اليوم مثل السيد المحترم ولكنني كنت بحاجة إلى البقاء في البيت.

تناولت الفرشاة وأخذت أنظف المرحاض. طوال هذه المدة كان هناك سؤال ينخر في دماغي مثل الشوك: «إن لم يكن قد بقي غيرنا أنا وبنديكت في الطابق فهذا يعني»...

بمجرد أن نظفت المرحاض أغلقت الباب وجلست على المكان المخصص فوقعت عيناي على الكتابة فوق الباب: «أتمنى أن أجبر ذلك السافل المخرب على لعق المرحاض بلسانه!».

خطر في بالي للحظة أن يكون هذا من عمل بنديكت وأصبحت الآن... أدين لها بشيء.

خرجت من الحمام من دون أن أتبول. كان علي أن أستعد لعواقب هذه الحادثة القادمة.

في المرة السابقة حين تسرعت دفعت غرامة باهظةً. كانت قد مضت ثلاثة أيام على وضع أكياسها في الممر

ومع أنها كانت تخرج كل يوم فإنها لم تكن تحمله إلى الأسفل. لم أكن أشك أن هذا العمل متعمد ولم تكن ترميه آملة أن أعترض. في اليوم الرابع، وحين رأيت أنها لم تحمل أكياس القمامة اشتطت غضبًا. وجدت أحد إصدارات جريدتها السابقة التي كانت تختص بهذه الأمور وقررت أن ألصقها على باب غرفتها. ولكنني تراجعت عن ذلك بسرعة: «أتبحث عن المشاكل؟».

كانت هناك ساعتان أو ثلاثة حتى الساعة الخامسة حتى عودة بنديكت من عملها فكان علي أن أنجو من هذه الكارثة بطريقة ما.

طرقت باب غرفتي في الساعة الخامسة والنصف: «هل أنزلت كيس قمامتي إلى الأسفل؟».

ظننت أن هذه أول مرة أتصرف فيها بعقلانية لكنني لم أحسب لهذا العمل. لو أكدت لها ذلك لكان من الممكن أن تدعي أنه كان فيه ذهب ولو...

فخطرت ببالي فكرة لامعة. فقلت لها بحسم: «أي كيس؟».

- هناك من أنزل كيس قمامتي إلى الأسفل.

- لا أعلم شيئًا.

بقيت بلا حراك لبضع لحظات كمن صعق بالكهرباء ثم طأطأت رأسها مضطربة وذهبت. الآن كان عليها أن تعصر دماغها لعدة ساعات لتعرف ما الذي حل بكيس قمامتها!

غادرت بنديكت ولكنها في اليوم التالي بدل أن تنزل كيس قمامتها إلى الأسفل وضعته في الممر. لو كان في ذاك الكيس مجموعة من الطباشير ونثريات الخشب لما صدرت منه رائحة ولكن هذا الكيس كان حاوية قمامة بكل معنى الكلمة. كانت قطتها طليقة في الممر طوال اليوم، تمزق الأكياس فتنتشر الرائحة العفنة في المكان كله. كنت أعرف أنها تنتظر أن أعترض.
لم يكن هناك مفر، كان علي إما أن أتحمل في هذا الجو الحار ذي الرائحة العفنة أو أن...
اضطررت إلى أن أقوم بدور عامل النظافة علها ترحمني ويعود الوضع إلى ما كان عليه وبما أن حادثة المرحاض كانت قد وقعت فكان علي أن أنتبه ولا أتسرع.
خطر ببالي عند الغروب أن آخذ نسخة من جريدة بنديكت السابقة معي إلى الحمام لأتأكد من أن الكتابة خط يدها فعلًا.
حين دخلت إلى الحمام كانت الكتابة السابقة قد اختفت وكان مكانها كتابة باللون الأحمر فوق الباب: «على ذاك اللعين السافل الذي يكتب على الباب والجدران أن يلعق المرحاض!».
لم يبق شيء حتى أفقد رشدي. لم يكن هناك أحد غيري وبنديكت في المبنى وهذا يعني...
أخرجت جريدة بنديكت السابقة من جيبي وقارنتها بالكتابة على الجدار. كان الخط خط بنديكت! مما جعلني أفقد ماء وجهي. ولكن هذا الإحساس لم يستمر طويلًا: حسنًا، هذا خط بنديكت ولكن من كتب الأخرى؟
رفعت كتفي وخرجت من الحمام. وفي منتصف الممر ظهرت بنديكت أمامي كالقضاء المستعجل: «أرأيت الأشياء التي كتبت على باب المرحاض؟».
حدقت بها محتارًا، مهما فكرت لم أعرف إلى ما كانت تشير إليه فقلت عاجزًا لها: «أجل، رأيتها».
- ولم تمسحها؟
كان على جون كاسافيتز(٦) أن ينجح. فتسللت روحي إلى جسده، وقلت: «حسنًا، إنه باب المرحاض وليس باب غرفتي!».
- ألا يضايقك أنهم يكتبون هذه الترهات؟
لا بأس، كانت تنسب هذه الكتابات إلى شخص آخر. ليتني كنت أستطيع أن أشتمها كما أشاء ولا يصدر لها صوت. فقلت باعتقاد عميق وبحركة صبورة ديمقراطية: «إن أراد أحد ما أن يعبر عن رأيه في المرحاض فما علاقتي أنا بذلك؟».
تمزق جلد النمر الذي كانت بنديكت مختفية داخله فجأة وتبدلت تلك النظرة الشيطانية وتلك المخالب إلى غضب وقصة الضعف: «لم علي أنا أن أمسح هذه الترهات التي تكتب على الباب والجدران؟.
انفطر قلبي لأجلها فقلت لها بصوت هادئ: «أنا أعرف كيف أمسح براز الآخرين، وهذا ما أفعله كل يوم!».
ومنذ أن تركت السيد ورعنا في مقهى «الفنارات» وعدت إلى غرفتي كانت هناك طاقة خفية توسوس داخلي لأذهب وأقرع باب غرفة بروفت. وحين علا صوت كمان ميلوش مرة أخرى ظننت أن الوقت قد حان لذلك. كلما راجعت أحداث الشهر الأخير كنت أقتنع أن هناك صلة بين هجوم الليلة الماضية لبروفت على السيد وما حدث بيني وبين رعنا. ولا سيما أنه ذهب إلى رعنا بعد السيد! بالإضافة إلى ذلك فإنه ورعنا والسيد كانوا يستيقظون أبكر مني بعدة ساعات. فكرت بما أن الجدران رقيقة فإنه لا يعلم فقط ما جرى بيني وبين رعنا بل يعلم أشياء لا أعلمها أنا!
نهضت ولكن في نفس اللحظة رن الهاتف، ظننت أنه السيد. لكنها كانت مكالمة خارجية: «مهدي!».
- من تريدين؟
- مهدي.
انفك سلك الهاتف الملفوف بسرعة فشوش الهاتف! وقلت بصوت عميق:«مهدي؟».
- ربما تعرفه باسم تقي.
كان تقي يقيم في غرفتي قبل سنة ثم سلمني غرفته وغادر. كنت أعرف أن هناك نشاطات غامضة، ولكنني لم أكن أعرف أن له اسمًا مستعارًا وهو مهدي! قلت: «لقد ذهب إلى أمريكا».
- أنا أتصل من أمريكا!
- إنه لا يعيش هنا منذ سنة.
- إذًا...
لم يكن الصمت في خط الهاتف شيئًا عاديًا. فقد اختنق في حلقها :«آسف على إزعاجك».
- لا بأس.
جعلني الاضطراب المبهم أن أحدق في نقطة مجهولة وكأن الشخص على الطرف الآخر من الخط كان يحدق بنقطة مجهولة أيضًا حتى أنه لم يغلق السماعة.
فقلت: «هل حدث شيء؟».
- إذًا فهو صحيح!
- ماذا؟
أجهشت بالبكاء وأغلقت السماعة.

كان ما يحدث بيني وبين رعنا غير قابل للحل. وباعتقاد علماء الاجتماع كان أحد معضـــلات النفي العام. كل منفي يحتاج إلى قاعدة ليتمكن من الدخول إلى الأرض الجديدة ولا يختار الشخص المنفي الأرض الجديدة. يجب أن يرى أين يجد هذه القاعدة – التي تكون عادة أخًا أو أختًا أو صديقًا أو قريبًا عاجزًا وأحيانًا يكون صديقًا لصديق أحد الأقارب البعيدين – عندها يصيب المضيف مصيبة، وبعد فترة قصيرة وبحكم قوانين المنفى غير المكتوبة تدمر هذه القاعدة إلى الأبد ليدخل منفي جديد بدوره ويصبح أستاذًا لمنفي جديد وبذلك يمر بالتسلسل. لم يكن هناك أحد مخطئ لا المضيف ولا المنفي لأن كليهما عريقان وليسا في مكانيهما. كان المضيف قد أحس أن الوقت قد تجمد وأنه أصبح سيء الخُلق ومنهكًا. بالإضافة إلى وجوب مرافقة المنفي الجديد كل يوم هنا وهناك إلى أن يجد وضعه الثابت فيشعر المستجد نفسه في وضع متعاكس تمامًا، فهو لم يكن يعرف ألم النفي وكل شيء كان ينظر إليه كان يشتم فيه رائحة الحرية الجميلة. كان المنفي المضيف يعيش دائمًا مع ماضيه والمنفي الجديد يحاول جاهدًا أن ينسى ماضيه». فيبدو حديثهما على أنه حديث حلم مبهم مع متكلم أصم وبما أن البيت صغير فكانا يتخبطان ببعضهما دائمًا ويتعاركان وبسرعة يضيقان ذرعًا ببعضهما وكان على الجديد أن يحزم حقيبته ويغادر مقهورًا.

إلا أن رعنا لم تحزم حقيبتها، حين ضاقت ذرعًا بي قلت لها: «قبل أن تصبح هذه الغرفة مطبخي كانت مكان إقامة فتاة مثلك أظن أنها لم تهجره بعد. ولم تكن تتدخل في شؤوني فلا تتدخلي في شؤوني أنت أيضًا».

مشكلتي مع رعنا مشكلة خاصة وليست مرتبطة بما قاله علماء الاجتماع على الإطلاق.

في السنة الماضية حين أتت إلى هنا في زيارة قصيرة عملت بنصيحة ذاك الرجل العاقل لكن رعنا كانت قد وقعت في حب شخص آخر وكان عليها العودة. في تلك الزيارة القصيرة إلي تمكنت من البحث عن عيب فيها ووجدت أن لديها ثلاث شخصيات مختلفة. أولها امرأة جميلة ذكية نشيطة وشعبية، وقد وقعت في حب شخصيتها هذه بالذات الثانية فتى مدلل والثالثة فتاة رائعة وضعيفة كاسرة اكتسبت مؤقتًا ثقة بنفسها جراء رعاية رجل عاشق لكنها كانت تنشب مخالبها في وجه الذي يتكلم معها بمجرد أن تحس بأقل هجوم خوفًا من أن تقع على الأرض مرة أخرى.

وبما أنها كانت قد أتت لتبقى كانت منفية بسبب العشق وليس السياسة. كان جناحاها مجروحين وللتمكن من نسيان الماضي كانت بحاجة إلى الوقت وإلى وجود شخص يحبها حب العالم بأسره ويمنحها رؤية هادئة ومستقرة.

لم تمنحها غرفتي الصغيرة أو حياتي الحقيرة أو شخصيتي المتخبطة هذه الرؤية فإن كان لها ثلاث شخصيات فإن شخصياتي لا تعد ولا تحصى. كنت أنا ظلًا لا يمكن أن يقف لوحده لذلك كان علي أن أستظل بشخصية أحد ما دائمًا وكان مجال الاختيار بلا حدود أحيانًا كنت أصبح ماكس فن سيدو وأحيانًا جورج فيليب وأحيانًا جان بول سارتر وأحيانًا دستويفسكي وأحيانًا أخرى جون كاسافيتز لم يكن في الأمر قانون. كنت شخصًا متقلبًا. وأحيانًا كنت أتقمص شخصية الطرف الآخر وحين يتصرف بغباء كنت أضحك عليه من دون أن يعرف لماذا وينزعج. والآن خمنوا في هذه العشرة أيام التي كنا فيها أنا ورعنا معًا من كان يغازل من!

والأسوأ من ذلك كلما كنا ننام مع بعضنا كنت أتساءل: «أرجو أن لا تكون تغازل كاساويتس أو ماكس فن سيبدو بدلًا مني».

وكانت هي أيضًا تتساءل: «أرجو أن لا أكون أغازله من أجل الإمكانات التي يعطيني إياها لا من أجل إعجابي الخاص».

هذه كانت الجملة الأخيرة التي قالتها حين ذهبت إلى غرفة السيد كنت قد سمعت ذلك بأذني في تلك الليلة حين تركت الباب مفتوحًا بسبب الحر أو لأنني كنت متعبًا وعندها فقط فهمت لماذا قررت ألا تنام معي.

ورغم أنني جرحت من ذلك القرار كنت غير راض على الإطلاق: «لا مشكلة، بدلًا من ذلك ستعودين إلى روتين حياتك العادي في المرة القادمة!».

لكن روتين حياتي العادي كان وكأنه لا يعود إلى طبيعته أبدًا كان كل شيء يسير بطريقة غريبة. بحيث اضطررت في أحد الأيام إلى أن التقت حاملًا مفتاح المطبخ الإضافي وأقول لها بلباقة تامة: «لا شيء يساوي وحدتي!».

ويوم أعطيتها المفتاح أكدت لها أنها ضيفتي إلى أن تحل مشكلة إقامتها بشرط أن لا تتعدى على استقلالي. ومع ذلك كانت تأتي إلي بأي ذريعة. أحيانًا بذريعة أنها تتوق إلى الذهاب إلى السينما أو إلى تناول العشاء في المطعم وأحيانًا أخرى حسب عملي بالضبط كانت تطلب الذهاب إلى شرفة مقهى ما لتجلس هناك. كانت لعبة غريبة ربما كانت تظن أن نفيها إلى المطبخ سلاح لأجعلها تركع أمامي. من يعلم ربما كانت محقة! وربما كانت خائفة أن أترك متابعة مسألة إقامتها بسبب انتهاء علاقتنا. لكنها لم تكن محقة. لأنني لم أكن فقط أتابع مسألتها بل كنت أحاول قدر استطاعتي الاعتناء بها حين كانت تضجر. ولكن إلى أي حد كانت مقدرتي؟

لهذا وجدت رعنا مؤخرًا حلًا جديدًا. كانت تذهب إلى السيد كلما أسأت التصرف. كان السيد طيبًا وحنونًا وحسن الوجه!

شيئًا فشيئًا أصبحت متأكدًا من أنني في النهاية سأخرج من هذا الطريق المسدود لكن رعنا لم تغير طرقها تجاهي على الإطلاق لم تكمل فقط توقعاتها غير المعقولة التي لم تكن متناسبة مطلقًا مع الوضع الجديد ولم تتراجع عن الضغط على الأشياء التي لم تكن صحيحة في رأيي. سواء في المطبخ أو في تلك الغرفة أينما كانت، كانت عيناها المؤنبتان تراقبانني دائمًا:

- لماذا لا تعلق المفتاح على ذلك المسمار لكي لا تضطر إلى البحث عنه كل مرة؟

- لماذا تطيل ذقنك هكذا؟

- لماذا تربط رباط حذائك بهذه الطريقة؟

- لماذا تمسك الشوكة والسكين بهذه الطريقة؟ (بالمناسبة، لماذا لا يمكن أن نفترض أن بعض الناس في بعض الحالات الاستثنائية يستخدمون اليد اليسرى؟)

الآن فهمت لماذا لم يكن إريك فرانسوا شميت يجرؤ على طرد الزوجين الشابين المدمنين على المخدرات اللذين يعملان في البناء كناطورين ولا ينظفان الدرج لسنوات وكان معروفًا بأن لهما يدًا في بيع وشراء المخدرات. فكلما وقع تحت تأثير شكاو المستأجرين كان يخلص نفسه من ذلك بتذكر ابنتهما الصغيرة البريئة وينهي الأمر بإخطار صغير.
وحين كنت أفكر بلائحة البلدان الطويلة التي حاربت لسنوات وأحيانًا لقرون من أجل استقلالها. كنت أدرك سهولة فقدان الاستقلال وصعوبة الحصول عليه. أصبحت أحس الآن – وأنا الذي تركت وطني لأنهم كانوا يتدخلون في كل أموري – بأنني ملعون وأنهم حين سيضعونني في القبر فإنهم سيتدخلون بشؤوني في كل شيء!
١٤
كنت محتارًا تمامًا، كانا يقولان إن إريك فرانسوا لما قرأ كتابي مات غمًا مع أنني كنت عنده اليوم، وقالا إن رعنا رمت نفسها تحت القطار مع أنني كنت قد تحدثت معها على الهاتف منذ ساعة مضت قبل أن يصيبني ما أصابني، بالإضافة إلى ذلك كله لم يكن كتابي قد نشر بعد أن ذكرني الناشرون بأن هذا الكتاب بلا قيمة، وكنت قد رميته في زاوية، ولم أعرف مكانه حتى. حتى جاء ذلك اليوم الذي...
قلت بثقة تامة: «لكن كتابي لم ينشر قط!».
تراجع فاوست مورناو بضيق: «أنا تعبت. أنت قم بإفهامه!».
اختفى فاوست مورناو وظهر مكانه رجل هندي أحمر طويل كان يمثل في «الطيران فوق عش الحمامة»، ووقف تمامًا في المكان الذي كان فاوست مورناو يقف فيه. وأضاء نور المصباح الذي لم يتغير مكانه طوال هذه المدة طرف وجهه الأيمن.
فزعت. لقد علمني جوهر طريقة التبادل هذه في مكان آخر وزمان آخر وأن هذه التغييرات التكتيكية علامة انتهاء سياسة الجزر ومجيء دور العصا. ولكن على عكس ما تخيلت، بدا تصرف هذا الهندي الأحمر مناسبًا تمامًا: «إن بلادكم مثل النمسا، الكاتب الجيد يجب أن يكون ميتًا. لم ينشر كتابك فقط بل يتناقل من يد إلى يد».
حين سمعت صوته أدركت أنه نفس الرفيق المقابل. علي أن أعترف أن شكله لا يشبه الشكل الذي تخيلته ومع ذلك فإن ما قاله عن كتابي سبب لي الحيرة أكثر فقلت له مشككًا: «حتى في أكثر البلدان تقدمًا لا يمكن طباعة كتاب بهذه السرعة!».
- أي سرعة هذه؟
- اليوم فقط انتقلت إلى رحمة الله!
- يمضي كل شيء هنا خارج الزمان المطلق.
- هل مضى على وفاتي وقت طويل؟
- أمور مثل «اليوم» و«غدًا» و«أمس» مكانها هنا، أنت نفسك في أي وقت تحس أنك الآن؟ صباحًا؟ مساءً؟ لقد مت فقط، وهذا كل شيء!
الآن فهمت لماذا لم يكن النور المائل يتغير على الإطلاق.
- هل رمت رعنا نفسها تحت القطار فعلًا؟
- حسب هذا الزمن أجل. لكن حسب ذلك الزمان فإنها الآن بجانب رجل هولندي ضخم تشفط ما بقي من كأس الكولا بالقشة. بعد عدة دقائق سيذهب الرجل الضخم ليشتري سجائر. فتوصيه رعنا أن يشتري كتابك إن كان محل بيع الكتب في المنطقة قد أحضر الترجمة الفرنسية له. في نهاية الليل ستحصل رعنا على كتابك.
- وهل كان كتابي سبب موتها؟
- كانت تحس بأنها بلا فائدة، كما أن شخصيتك المظلومة المزيفة كانت تزيد تأنيب ضميرها ولاسيما بما أنك أصبحت مشهورًا وجعلوك شهيدًا بهذا الشكل المريع. أنت تعرف أبناء وطنك!
منذ بداية الحديث شعرت بالقلق بشدة ولا سيما أنهم تركوا كل شيء واتجهوا مباشرة إلى ذلك الكتاب اللعين. وحين استخدم مصطلح «شهيد» هدأت قليلًا. وقلت له: «هل تظن أنت أيضًا أن رعنا كانت محقة؟».
- صحيفة أعمالها تخصها هي فقط.
- وأنت تريد أن تعيدني ثانية من أجلها؟
- لا يعود أحد من أجل قتل غير متعمد!
- إذًا فلماذا ستعيدني؟
- من أجل ذنب.
قرأت في الروايات أنه «في يوم القيامة يرى بعض الناس أنه توجد في صحائفهم أعمال مكتوبة لم يرتكبوها في عمرهم قط ولا يعلمون عنها شيئًا قط وحين يسألون يرد عليهم بأنهم كانوا مع مجموعة الناس الذين ارتكبوا هذه الأعمال وأنهم لم يخطئوا». سألته مستغربًا: «بسبب ارتكاب ذنب أو عدمه!».
- سيعيدونك بسبب «الذنب».
- بحق من أذنبت؟
- بحق نفسك!
١٥

إن تاريخ اختراع المرأة الإيرانية المعاصـرة كان يشـبه تاريخ اختراع السـيارات، مع وجود اختلاف واحد وهو أن السـيارة كانت عربة تغير محتواها في البداية (أقصد أنهم أزالوا الأحصنة ووضعوا مكانها محركًا) ثم شيئًا فشيئًا أصبح شكلها يتناسب مع محتواها؛ أما المرأة الإيرانية المعاصرة فتغير شكلها في البداية ومن ثم عندما أخذت تبحث عن محتوى مناسب أصبح الوضع حساسًا. (كما أن اختراع المرأة التقليدية تم بعد ذلك بنفس الطريقة ولم يكن الوضـع أقل حسـاسـية.) وبهذا صـنع كل شـخص حسـب إمكاناته وذوقه الشـخصـي من عقلية المرأة التقليدية ومطالب المرأة المعاصـرة تركيبًا. كان مجال تغيراتها من العباءة إلى الميني جوب. كانت تريد أن تشارك في جميع القرارات ولكنها كانت تطلب جميع المسؤوليات من الرجل. أرادت أن تبرز شخصيتها أمام الآخرين لا جنسها، لكنها دخلت الساحة بجاذبيتها الأنثوية. وكانت ترتدي الميني جوب لتعرض ساقيها ولكن إن قال لها أحد شيئًا فإنها تشتكي بلا خجل. وكانت تطالب بأن يشارك الرجل دائمًا في أعمال المنزل ولكن حين كان الرجل يوافق على ذلك كانت تصفه بأنه ضعيف ومن دون شـخصـية. كانت تطالب بحق الإدلاء برأيها في الأمور الجدية لكنها لم تكن تسـعى لتكون لها وجهة نظر جادة. لم تكن راضـية عن حياتها الزوجية، لكنها لم تكن تجرؤ على الانفصال أو الخيانة. كانت تعتقد بالمساواة الجنسية والإرضاء المتبادل لكن حين كان يصل الأمر إلى الانفصال كانت تأسف على شبابها الذي ضاع بلا جدوى أو بلا داع من أجل شخص آخر.

كانت هناك نساء يقفن في أحد طرفي هذا الطيف بلا شك. لكن رعنا كانت في منتصـفه تمامًا. في الليلة السـابعة عشـر لإقامتها، قبل أسـبوع من انفصـالنا بالضـبط... دعوكم من هذا. ما فائدة هذا الكلام؟ فتحت الباب. كانت رعنا جالسـة على السـرير تكتب رسـالة؛ تناولت إبريق الشـاي ورأيت لأول مرة أنها أعدت الشـاي. نظرت إليها محتارًا. كادت أن تبتسم لي فأشـحت نظري بسـرعة وفتحت حنفية الماء. كان رأسـي يؤلمني وشـعرت بالاختناق الشـديد؛ كنت قد مشـيت تحت المطر طوال ليلة البارحة وأنا أشـتم نفسـي مئات المرات.

نظرت إلى المرآة. لو أنني رأيت انعكاسي، لابد أن وجهي كان منتفخًا بأكمله. غسلت وجهي ويدي ووضعت غدائي الذي كان عبارة عن شريحتي لحم في المقلاة. ثم بدأت بتحضير السلطة. طوال هذه المدة كنت صـامتًا وحاولت أن أحافظ على قناع الهدوء الذي كان على وجهي. كانت رعنا خبيرة ومتمرسة بهذه الأمور. فكانت تحاول كسر جو التشنج الذي كان مثل القنبلة الموقوتة التي تجعل الجو المحيط مضـغوطًا وثقيلًا بطرح أسـئلة سـخيفة مثل سـعر طوابع البريد في البلدان. وأنا أيضًـا كنت موافقًا على ذلك فأعطيها أجوبة قصيرة ولكنني كنت أحاول تجنب النظر إليها مباشرة.

شعرت لأول مرة أنها حسنت هندامها، وأن نظرتها التي كانت تؤذيني كثيرًا تغيرت، وكأنها كانت تراني لأول مرة. علي أن أعترف أنني شعرت بالرضا من هذا الأمر.

أغمضت رعنا عينيها نصف إغماضه وقالت: «أأنت غارق في التفكير؟».

- لا أفكر بشيء ذي أهمية.

- هل أنت مستاء؟

مستاء؟ لو كنتم مكاني لكنتم قطعتم رأسـها. في الليلة الماضـية، في الليلة السـابعة عشـر لإقامتها، وبالضـبط بعد أسـبوع من انفصـالنا كنت أرسم لوحة برنارد، صـديق من ثوار شـهر أيار سنة ألف وثلاثمئة وثمانية وستين وبعد أن شعر بالإحباط من كل شيء كان قد حبس نفسـه في شـقته لمدة سـنتين، وبعد أن خرج ذهب مباشـرة إلى الشـرق وأمضـى عدة سـنوات في الهند وإيران ومنذ أن عاد من هناك وهو يعيش على تقديم موسيقى تلك البلدان».

كان مزاجي عصـبيًا جدًا لكثرة ما رسـمت، ثم مزجت عليه الأصـباغ وفي النهاية مهما فعلت لم أسـتطع تعديل تثاؤب برنارد. لم يكن ذلك التثاؤب حركة طبيعية للجسد بل كانت رعشة مصادفة للروح.

حدث هذا التثاؤب ليلًا حين أتى برنارد مع صديقته إينغريد لزيارتي.

طوال المدة التي كنت أطبخ فيها كانت إينغريد تقف إلى جانبي وتتحدث. حين تناولنا العشاء طلب مني برنارد أن أغني لكي تستطيع إينغريد التي كان اختصاصها موسيقى الباروك والقرون الوسطى وتعزف على المزمار، مرافقتي في العزف سماعيًا.

كنت قد تركت الغناء لسنوات لكنني كنت أحيانًا أدندن لنفسي لاسيما حين أرسم. ولسوء حظي في تلك الليلة سأل برنارد شيئًا حول الموسيقى الإيرانية ولم أستطع شرح الأمر بشكل آخر، فاضطررت إلى أن أغني وحين سمع برنارد صوتي لم يدعني وشأني خاصة وأن هناك شخصًا كان يعرف عني وقد زل لسانه.

والآن أحضـر صـديقته إينغريد لكي يتمكن من فعل شـيء بالصـدفة. بعد العشـاء عزفنا قطعة صـغيرة سماعيًا وحين انتهينا شـجعاني وأنباني ونصحاني حتى اضطررت إلى الموافقة. ثم نهضت إينغريد فجأة وطلبت مني أن أرافقها إلى السيارة بدلًا من أن تطلب ذلك من برنارد. فوجئت بهذا الاقتراح، وانتابني الضـحك فجأة: «أظن أن علينا أن نبحث عن مكان لنتبارز يومًا ما». وبينما كان برنارد ينظر إلي تثاءب حتى ارتعش جسده بالكامل.

كان ذلك التثاؤب نقطة عطف في تاريخ علاقتي مع برنارد وتحول بالنسـبة لي إلى لغز عالمه مهما فعلت لم أسـتطيع تعديله. كانت الساعة التاسعة والنصف ليلًا ومع أن أسناني كانت تؤلمني بشدة كنت مصممًا على أن أعمل حتى الصباح حين قرعت رعنا الباب ودخلت.

كنت أعلم أنها ضجرت والسيد ليس موجودًا ليهدئ من روعها. ظننت أنها حين سترتاني مشغولًا فإنها ستقنع بذلك الحضور الصامت أو أنها ستتناول كتابًا وتشغل نفسها به لذلك تابعت عملي فتمددت على السرير عارضة ساقيها المرسومتين. حاولت أن أركز مجددًا

لكنها أثقلتني بنظرتها المعاتبة. علمت أنها ستفتح فمها الآن لتنتقدني. كانت قد قالت في إحدى المرات: «لماذا ترسم لوحات دائمًا؟».
وفي إحدى المرات أيضًا خيبت أملي: «لا أحد يرى هذه الأشياء أو يشتريها فلماذا تهدر وقتك عليها؟».
في الحكايات القديمة كان هناك حمار وحشـــي جميل دائمًا يظهر أمام المرء، وبعد أن يحرفه عن طريقه يؤذيه لدرجة أن قلب أي كافر ينفطر على حال هذا الكائن في هذه الأسطورة، والآن قد ظهر هذا الحمار الوحشي الجميل مرة أخرى في العالم الواقعي وأتى إلى غرفتي.
- كيف تستطيع النوم برائحة هذه الأصباغ؟
كنت قد بدأت بالتصـــديق أن القدر شـــيء مثلث الشـــكل. فقد هربت من بيت والدي لأن عينين موبختين كانتا دائمًا تتابعانني. وفي العاصمة حين أردت أن أتخلص من هذا الحمل المرعب تملكتني تلك العينان المعاتبتان والآن حين بدأت أشعر بأنني أفضل ظهرت رعنا!
قلت لها: «أين علبة أقراص المسكن التي أعطيتها لك مساء البارحة؟».
- أنذهب إلى السينما؟
لم يعد هناك مجال للشـك أن رعنا اكتشـفت سـري وفهمت أنني لسـت أكثر من ظل، ومع ذلك ظننت أنها لم تسـمعني. فقلت لها: «أسناني تؤلمني».
- يقال إن دليكاتسن فيلم جيد.
إن الإحساس بطلب الشهادة والظلم اللذين يعدان سمة إيرانية تمامًا، لم يسمحا قط على مر الزمن أن نحل شيئًا يمكن حله بصفعة واحدة؛ وقد سمحنا أن يغلي دمنا عندما لا تحل هذه الأمور بالمجازر، وأن نحرق كل شيء وألا نقوم بحله. وفي تلك اللحظة اندمجت مع تاريخنا بكل معنى الكلمة مثل شهيد مظلوم، تناولت
الجريدة وبعد أن ألقيت نظرة على عمود السينما قلت: «الساعة الآن قرابة العاشرة. هناك سينما قريبة من هنا؛ إن أسرعنا نستطيع أن نصل في وقت العرض».
كان دليكاتسن فيلمًا فرنسيًّا ورغم أن رعنا كانت تتقن اللغة الإنجليزية فإنها لم تكن تعرف من اللغة الفرنسية شيئًا. وبمجرد أن بدأ الفيلم استدارت إلي وقالت مغاضبة: «إنه باللغة الفرنسية!».
في تلك اللحظة تذكر الشهيد المظلوم، الذي لم يحل الأمر بصفعة صغيرة، تذكر نفسه فنهض بسرعة وترك قاعة السينما.
كنت قد مشيت طوال الليل تحت المطر ثم تسألني هل أنت مستاء؟
أجل، لو كنت مكانكم لقطعت رأسها حتى أنني كنت أفكر بذلك. ولكن كان يجب أن أصبر قليلًا. قلت: «علي أن أسرع وأذهب إلى مأوى العجزة».
- حسنًا، لماذا ستذهب؟ فأنت...».
نظرت إليها. طأطأت رأسها.
كدنا أن ننهي الغداء طوال هذه المدة. حاولت أن أهدئ الجو بمجاملات صغيرة ذات نبرة حنونة إلى حد يمكنها من ابتلاع الطعام.
كان صوت كمان ميلوش يرسم غيومًا داكنة تتحرك في السماء بسرعة.
حين أنهت كوب الشاي كان قد حان الوقت لأذبح تلك الدجاجة التي أطعمتها. نهضت وبينما كنت أنظر إليها مباشرة قلت لها بصوت هادئ ولكن حاسم: «لديك أسبوع لتجدي لنفسك مكانًا آخر!».

١٦

تلك الغرفة المزدحمة المغبرة الملأى بالأشياء المكسرة التي لا تستعمل أصبحت الآن نظيفة وخالية. كان هناك سرير خشبي قديم في الطرف الأيسر للغرفة ملاصق لجدارنا المشترك. كان يبدو من ناحية أسلوب صنعه أنه يعود إلى أوائل القرن. (من يعلم ربما كان سرير جان جوريس(٧) وحين أرادوا إلقاءه أحضره إريك فرانسوا شميت الشاب إلى بيته كتذكار تاريخي لقائد الحزب وحين سئم منه نقله إلى المخزن لأنه لم يســتطع أن يرمي التذكار التاريخي لقائد الحزب ولم يســتطع أن يرى أنه قد ســأم من قائد الحزب التاريخي).
كان على الحائط في الطرف الأيسر لهيب نيران حتى السقف وكانت هناك عين جاحظة من شدة العذاب بين ألسنة اللهب. كان اللون الأحمر القاتم ونمط «الفن الفطري» يذكراني بلوحات معركة وصور مشهد يوم القيامة والأفعى الغاشية والعذاب الإلهي. كنت قد رأيت تلك المشاهد في صغري عدة مرات، وكل مرة كنت أبكي على حال الشهداء والمظلومين الذين قتلوا على أيدي الأشقياء، وفي النهاية كنت أهدأ حين يقسم حرملة(٨) (برأسه الأقرع وشاربيه الطويلين وكأنه يشبه جزار منطقتنا) بضربة من سيف الإمام من رأسه حتى بطنه إلى قسمين، خاصة أنني علمت أنه بالإضافة إلى كل ذلك عليهم أن يغلوه في الآخرة وأن تأكل الأفعى الغاشية دماغه.
كان بروفت قد تناول فرخ زرزور من سلة القش الصغيرة التي كانت مقابل النافذة وأخذ يداعبه بحنان من دون أن يكترث بحضوري المفاجئ، وفي الوقت نفسه كان يتناول حب عباد الشمس بسرعة من الكيس على الطاولة، ويضع لبه بين أسنانه ويقرب فمه من منقار الطائر الصغير.
كان لدي دليل كاف لمجيئي هنا. كما أن الاتصال من أمريكا أشعل حريقًا كبيرًا. كنت قد نهضت ومن دون أن أفكر بعاقبة تصرفي أو أخاف من ذلك المخلوق الذي خلق كل ذلك الرعب في الليلة الماضية، طرقت باب غرفته.

أتى كلانتر قبلي للمرة الثانية منذ بضع دقائق. ولكن بمجرد أن قدم نفسه قال له بروفت مجددًا: «دعني وشأني». وهذا ما حرضني أكثر.
حين كنت أذهب إليه، لم تكن هناك أي خطة معدة في ذهني ولم أعرف كيف ومن أين أبدأ.
كان هناك كتاب أعرفه جيدًا على الطاولة إلى جانب كيس حب عباد الشمس. شعرت أنه أفضل ذريعة لأدخل في الموضوع الأصلي، ومع ذلك فضلت أن أبدأ من مكان آخر: «يبدو وكأنك تحب الاعتناء بالعصافير».
- لقد وقع من عشه فخشيت أن تأتي الكلاب وتنهشه.
قلت له:«غريب!»، وظننت أنه سيسأل: «ما الغريب؟»، لكنه قال: «أجل، غريب».
ومن ذلك السؤال والجواب تذكرت بلا إرادة الحوار القصير والمليء بالرموز بين «ابن لعربي» و»ابن رشد». أدركت أنني لن أصل إلى أي مكان، لذلك شغلت نفسي بالتفرج على الحائط والباب: «هل هذه اللوحة من صنعك؟».
- أجل أنا أحترق في جهنم.
وفجأة أشفقت بشدة على ذلك الشاب الثلاثيني، والذي خلق كل ذلك الرعب والتنافر بأحداث الليلة الماضية. كنت متأكدًا أن ذلك اللهيب المتصاعد من حائط غرفته يحترق من مكان في أعماق قلبه. كنت أستطيع تخيل اليوم الذي يأتي فيه إلى البيت ويرى المرأة – التي قد يكون اسمها إيزابيل أو كريستيان أو كاثرين – التي يحبها كثيرًا عارية ونائمة إلى جانب شاب أشقر وبدل أن يتناول سكينه ويذبحه من الوريد إلى الوريد ولا يحترق أبدًا في نار جهنم، يترك كل شيء بيد الرب لأن الرب هو الوحيد الذي يعرف إن كان ذلك الطفل ذو السنة من عمره، من دمه أم من دم ذلك الرجل الأشقر الذي من الممكن أن يكون اسمه فيليب أو مارسيل.
- وكأنك كنت مشغولًا لمدة طويلة برسمها؟
- كيف ذلك؟
- أسمع ضجيجها دائمًا
- كيف ذلك؟ هل يزعجك؟
- كلا. لكنه أثار فضولي فقط. لم أعرف أنك ترسم أيضًا.
- لقد رسمت هذه مؤخرًا.
- ولكن مضى وقت طويل وأنا أسمع ضجيجها. في البداية ظننت أنك تنظف جدار غرفتك.
- أنا أنظف ما سبق، وأرسم مكانه أشياء جديدة.
كان الوقت قد حان لأتحدث عن الكتاب الذي كان الكتاب الوحيد الموجود في غرفته وقد أثار وجوده الفضول قبل أي شيء آخر.
- وكأنك كنت مشغولًا بقراءة «مكاشفة يوحنا» حين رسمت هذه اللوحة.
- أنا دائمًا مشغول بهذا الكتاب.
- ظننتك متدينًا، ولكن يبدو كأنك غيرت دينك.
وضع يده تحت الطاولة وأخرج كتابًا آخر من مكان بعيد عن مرمى بصري: «أنا موحد. أقرأ القرآن والتوراة فقط».
اعتصرت أفعى قلبي. وفجأة تذكرت الحديث الذي دار بيني وبين رعنا والسيد منذ ساعة في مقهى «الفنارات». كان السيد قد قال: «يا لجسده الرياضي المليء بالعضلات». فقلت: «إن حركاته السريعة والمفاجأة تشبه حركات لاعبي الكاراتيه». فقالت رعنا: «أرأيتما الميدالية المتدلية من عنقه؟ تشبه ميدالية الجنود!».
كانت قد مرت فترات تخرج يد الله أحيانًا من أكمام رجال الله ويذبح الكفار المحاربين من وريد إلى وريد. وكنت قد تركت بيت أبي خوفًا من هؤلاء وأتيت إلى العاصمة. تركت البلاد هاربًا من أيدي هؤلاء الذين وصلوا إلى السلطة في البلاد، وأتيت هنا؛ أما الآن وأرى أن تلك الأيدي أصبحت أمامي، وفي غرفة ملاصقة لغرفتي تمامًا!
6 John Cassavetes) (٩ ديسمبر ١٩٢٩ - ٣ فبراير ١٩٨٩): كان ممثل ومخرج أمريكي من أصول يونانية. ويعد مؤسسًا لصناعة الأفلام المستقلة عن هوليوود، وتعود شهرته إلى بطولته في فيلم طفل روزماري لرومن بولانسكي حيث مثل فيه بدور رجل شيطاني.
7 Jean Jaurès) قائد اشتراكي فرنسي (١٨٥٩ – ١٩١٤)، اغتيل لمعارضته دخول الحرب العالمية الأولى ومواقفه السلمية. كان أحد مؤسسي جريدة الأومانيته ومن المطالبين بفصل الكنيسة عن الدولة.
٨) حرملة بن كاهل الأسدي الكوفي من أفراد جيش عمر بن سعد، وقاتل عبد الله الرضيع ابن الحسين بن علي في معركة كربلاء، وتصور الثقافة الشعبية مصيره قاتمًا حيث قطعت يداه ورجلاه ثمّ رمي في النار من قبل
جماعة مختار بن يوسف الثقفي.

الفصل الثالث: حضور من نوع حضور الحروف

١

لماذا لا يقول شـــيئًا؟ لماذا لا يقبل أن أجامله؟ لماذا هو حزين إلى هذه الدرجة؟ لماذا يوجد غبار على بنطاله وعلى وجهه وحذائه ترابي. من أين أتى؟

نحن لسـنا في الصـحراء، ولا توجد أرض ترابية هنا؛ إذًا، فمن أين أتى إن كان من لحمي ودمي؟ فلماذا لم تخبرني «م أ ر» شـيئًا؟ لقد كانت هنا منذ يومين. وبعد خمس عشرة سنة! عساها أتت لتقول لي هذا فقط؟

نهضت لأطفئ الضوء فنهض هو من مكانه بسرعة أوقفتني بلا إرادة. شعرت نفسي أمامه بأنني طفل رغم كبر سني. تمنيت للحظة أن أرمي بنفسـي عند قدميه ولكن كان هناك نور يشـع منه يمنعني من القيام بأية حركة. وبينما كان جالسًـا كانت هناك أشـعة تتموج حوله مثل المغناطيس مما جعلني أجلس باحترام. لكن الظلام بدأ يحل في الغرفة، وإن لم أشـعل الضـوء بعد أن يمضـي القليل من الوقت فكيف أستطيع رؤيته؟ وهو لا يتحدث، وثيابه داكنة. في الظلام الحالك... إن كانت تلك اليد...

لماذا أخفى يده اليمنى في جيبه؟ في الظلام الحالك... عندها علي التحدث فقط. أتحدث لكي لا أخاف أتحدث لكي لا أحس بشـــيء. بأي شـــيء. لا حركة يدي ولا عبور الخنجر الممزق الحاد. علي أن أتحدث دفعة واحدة. في مثل تلك الأوقات ليلًا حين أكون وحيدًا كنت أذهب إلى الصحراء. أغني كي لا أخاف، أغني كي أظن أنني أنا من أغلقت الطريق بصوتي وليس الجان، كي أظن أن صوتي يتبعني لا الجان. أما الآن فكان علي أن أتحدث وهو كان يعرف أنه في الظلام لا يسـتطيع أن يحيطني بنظراته. حين يحل الظلام يجب أن يكون حضوره من نوع حضور الحروف أيضًا. حين يحل الظلام عليه أن يصبح شخصًا آخر. كنت أعرف أنه حين يحل الظلام أصبح أنا أيضًا مظلمًا.

٢

كان الهاتف يرن. فتحت عيني؛ كانت السـاعة الثانية بعد الظهر. كنت أعرف أنه السـيد. كان يريد أن يعرف إن كنت ميتًا أم حيًا. وكنت حيًا. في اليوم السـابق حين ذهبت إلى بروفت سـمعت من هناك صـوت هاتفي يرن كل عدة دقائق مرة واحدة. في ذلك الوقت أيضًا كنت أعرف أنه السيد من يتصل لقلقه علي. بمجرد أن عدت من عند بروفت وفتحت الباب رن الهاتف ثانية. رفعت السماعة، كانت رعنا على الخط. قالت إنها والسـيد اتصـلا بالتناوب منذ سـاعة. قلت لها إنه لا يوجد ما يدعو للقلق، فقالت: «أردت أن أعود لكنني لم أجرؤ على صـعود السـلالم وحدي. أيمكن أن تأتي إلى الباب. أخاف أن يظهر ذلك المجنون أمامي». سـألتها عن مكانهما فقالت في المقهى ذاته، فقلت لها لتنتظر حتى أمر عليهما. وبعد نصـف سـاعة حين سـمعا تفاصـيل لقائي ببروفت، كانت طاولتنا أصبحت مرة أخرى تائهة بين طاولات مقهى «الفنارات» مثل سفينة من دون مرساة.

كان الهاتف لا يزال. رفعت السماعة بينما كنت في السرير أتثاءب.

- هل أنت موجود؟

- أجل موجود.

- إذًا سآتي خلال بضع دقائق.

كان صـوت السـيد منذ ليلة الحادثة ضـعيفًا وبعيدًا. ولم يعد يجرؤ على الصـعود إلى هذه الطابق لوحده. والآن وقد اطمأن أنني في غرفتي أراد أن يأتي ليأخذ كراسـاته ودفتره إلى بيت زوجته أنابيس. كان معه حق. لم يعد هذا المكان صـالحًا للعيش. عندما كنت ذاهبًا إلى غرفة بروفت كنت أتخيل أنه سيبدي خجله مما حدث ليلة أمس وسيعزو كل ما حصل إلى مشاكله الشخصية واضطرابات نفسية وسيعتذر للجميع وخاصة للسيد؛ ولكنني حين سألته عن سبب هجومه على السيد قال: «لا تقلق لم أكن أقصد سوءًا».

قلت له: «لو لم أصل كنت قتلته!». قال:«هذا ليس ذنبي».

- لقد كسرت باب غرفته بركلة واحدة ووضعت السكين على عنقه!

- لم أكن أقصد سوءًا.

- أتعلم أن لديه مرض القلب؟ ماذا لو أصابته نوبة قلبية؟

- كانت تلك مهمة.

- أي مهمة؟

- مهمة من قبل الرب.

لو كان أحد من زبائن مقهى «الفنارات» يفهم لغتنا حين كنت أحكي لرعنا والسيد عن مجريات لقائي مع بروفت، واستمع مصادفة إلى حديثنا لكان بالتأكيد نظر إلينا نظرة على أننا مخلوقات فضـائية ولكان معه حق. لكن أغلب زبائن مقهى «الفنارات» كانوا فرنسيين لديهم مشاغل أخرى وكان بعضهم يخوض نقاشات فلسفية حول مسائل المجتمع المعاصر الخطيرة أيام الأحد. وجرى الحديث في أحد تلك النقاشات وكان موضوعها الأصلي «الخوف» عن الخوف من القفز بالمظلات أن لم تفتح المظلة، إلى الخوف من عدم وجود الرب. لقد تكلموا عن كل أنواع الخوف إلا عن خوف واحد: «ماذا لو لم يعطهم الرب فرصة أخرى؟».

كان السيد محقًا. أنا أيضًا كنت أخاف من هذا بالذات، لذلك سألت بروفت: «ما الضمانة أن الرب لن يرسلك إلى شخص آخر غدًا؟».

وبينما كان بروفت يريني التوراة، قال لي: «كل شيء هنا».

- أتقصد أنك قد تأتي إلي يومًا ما؟

- ليس لي دخل بذلك. الشيء الوحيد الذي أستطيع قوله إن هناك أمرًا غير سار ينتظرك.
ثم أضاف قائلًا وهو يشير إلى التوراة: «حسب الحسابات الموجودة هنا، فإن السرير في الغرفتين السادسة والثانية عشرة سرير الشيطان!».
كان سرير الغرفة السادسة سرير بنديكت وسرير الغرفة الحادية عشرة سريري أنا!

٣

يقال إن خفقان أجنحة الفراشة في الصين يمكن أن يتحول إلى طوفان هائل في شيكاغو؛ فإلى ماذا ستتحول حركة نصل سكين بروفت؟ لم أكن أعرف. ولكن كان هناك شيء واضح: كانت الحركة قد بدأت!
كانت بنديكت التي هدأت لمدة طويلة ولم تعد تنشر شيئًا، عادت وفردت بساطها مرة أخرى في الممر. كانت تبدأ كل يوم صباحًا من الساعة التاسعة بالنشر ببغض وحقد وكأنها كانت تعرض سبب جميع مصائب حياتها. كان مشهد الأفعى الغاشية والقدر المغلي والمذنبين الذين كانوا ينشرون ينتقل من الآخرة إلى هذه الدنيا. ولم أعد أنعم بالهدوء لا صباحًا ولا مساءً.
قبل ذلك كان بروفت نادرًا ما يخرج من غرفته أما الآن فأصبح يذهب مئات المرات إلى الحمام وبمجرد أن يفتح باب غرفته كنت أصاب بالذعر. كان يدب بقدميه على الأرض مسرعًا وكأنه ذاهب لقتل شخص ما.
قرابة الساعة السادسة كنت أذهب إلى سريري منهكًا وبمزاج عصبي ولكن ما أن توشك أن تثقل جفوني حتى يصرخ إريك فرانسوا شميت بصوته الثخين المنخفض ذاك: «كلا يا غابيك ليس هنا. ليس هنا!».
ثم أسمع صوت سوط وأنين غابيك المؤلم وإلى أن يصل إلى باب الخروج يكون قد تبول على جميع السلالم. ثم كان دور مجموعة طيور القمري التي كانت تجلس مؤخرًا على سقف المبنى المقابل وتصدر نغمة مشؤومة تذكرني بذكريات مبهمة، وتجعلني مضطربًا وتمنعني من النوم.
أما الآن ومع فرد بساط نجارة بنديكت مرة أخرى في الممر وارتفاع صوت نشر منشارها، كنت استطيع أن أنام ساعة واحدة فقط من الثامنة وحتى التاسعة.
وبذهاب السيد إلى بيت زوجته أنابيس اتخذت علاقتي برعنا شكلًا حزينًا. فبعد أن أعطيتها فرصة أسبوع واحد لتجد لنفسها مكانًا آخر كانت في أغلب الأوقات تذهب إلى السيد، وفقط من أجل النوم كانت تأتي إلى المطبخ ليلًا أو من أجل الغداء أو العشاء. وبما أنه مضت عدة أيام لم يضع فيها السيد قدمه في هذا الطابق كانت رعنا طوال الوقت في المطبخ، وغالبًا ما كانت تتمدد على السرير وتحدق بسقف الغرفة الملوث بالزيت والمنتفخ. لم تعد تخرج أو تتناول الطعام كالسابق ولم تبحث لنفسها عن مكان آخر على الرغم من مرور يومين على انتهاء المدة.
وأنا كذلك حين كنت أتناول الغداء كنت أذهب إلى مقهى «الفنارات» وأجلس هناك مع السيد لعدة ساعات
ثم أعود، كنت أتناول القليل من الطعام على العشاء وأقول لرعنا تصبحين على خير وأذهب إلى غرفتي إلى «باليت» الأصباغ والريشة والفرشاة.
خلال تلك الأيام وفي أي فرصة قصيرة كنا نرى بعضنا فيها لم نكن نتبادل إلا الكلمات الجافة والباردة. كنت أعلم أنها قد ضجرت؛ كنت أعلم أنها حزينة جدًا. كنت أعلم أنها تتمنى أن آخذها إلى الخارج كالسابق، إلى السينما، أو على الأقل أن نجلس في شرفة مقهى ما. لكن كان كل شيء بيننا قد تدمر ولم يعد كالسابق. كما أنها قد قامت بخيارها.
مع ذلك كله فإنني لم أحتمل. كان منظر دمار الناس الأكثر مأساوية في العالم. أن ترى امرأة كانت مختالة كالطاووس فأصبحت الآن دجاجة هزيلة منتوفة الريش؛ أو أن ترى امرأة كانت تظن نفسها ملكة وأنت عبد رخيص اشترته بمالها، أما الآن فأصبحت تنتظر في زاوية آملًا بأن تلقي نظرة عليها. أن ترى...
لم أستطع التحمل فأخذتها إلى الخارج وجلسنا في شرفة أحد المقاهي. ونظرنا إلى المارة بصمت. لم يكن هنالك ما يقوله أحدنا للآخر. ثم شربت حتى الثمالة ولم تستطع المشي واضطررت إلى أن أمسكها من تحت إبطها لكي نعود. لكنها أرادت أن نقوم بدورة، فقمنا بدورة. وأمام ملهى أصرت أن ندخل لنرقص.
ربما يمكن فهم الناس ولكن هناك أوقات لا يمكن فهمهم فيها لأنهم مأساويون أصلًا، والآن كان علي أن أحمل همي وهمها.
في اليوم التالي حين ذهبت إلى المطبخ كانت مستلقية على السرير تنظر إلى السقف. وعندما أردت تسخين الطعام رأيت أنها لم تأكل طعام ليلة الأمس؛ وعندما سألتها لماذا، قالت إنها لم ترغب في الأكل. قلت لها فلتأت إذًا وتتناول الغداء فقالت إنها لا ترغب. وبعد أن جلست لأتناول الطعام رأيت دمعة تسيل من طرف عينها. ذهبت إليها، وبمجرد أن بدأت بمداعبة شعرها أجهشت بالبكاء. كانت قد أصيبت بنوبة عصبية مريعة. أخذت تبكي وتؤنب نفسها لأنها أساءت إلي. حين هدأت أخذتها ثانية إلى الخارج. مشينا حتى منتصف الليل وتنقلنا من حانة إلى حانة نشرب البيرة. وفي كل مرة كانت تترك نصف الكأس. وحين كنا نروم العودة وما أن نصل قبالة المقهى حتى تطلب أن نجلس قليلًا، فنجلس. واضطررت في آخر الليل أن أجرها بصعوبة مجددًا إلى المنزل».

ومرة أخرى حين ذهبت إلى المطبخ كانت مستلقية على السرير، فشعرت بأنها تذوب مثل الشمع. وبينما كنت أحلق ذقني كنت أنظر إليها من المرآة. كان هناك عرق بارد على وجهها. قلت لها: «أعرف ما الذي يؤلمك!».
وكأنها فهمت أنني لا أسأل عن أحوالها فحسب، فالتفتت إلي.
قلت لها: «فقط قولي لي نعم أم لا. أتريدين أن أساعدك؟».
نهضت قليلًا ثم عبست وكأنها تريد أن تتأكد أنها فهمت قصدي تمامًا. كانت قد فهمتني بشكل صحيح. ومع ذلك قالت لي بحذر: «كيف ذلك؟».
- أنا ذاهب إلى موعدي معه.
استلقت على السرير وكأنها تأكدت من فهم قصدي تمامًا. ثم استدارت إلي مستغربة: «أنت إنسان غريب!».
أجل كنت إنسانًا غريبًا. قلت لها: «فقط قولي نعم أو لا».
كانت قد وقعت في ورطة صعبة. من ناحية، رأت أنه رغم الأذى الذي سببته لي كنت فعلًا أريد مساعدتها –بالأخذ بعين الاعتبار الجوانب النفسية لم يكن بالإمكان تخيل ذلك الشيء– ومن ناحية أخرى لم يسمح لها غرورها الأنثوي بأن تضع نفسها في موقف ضعيف بإعطاء رد إيجابي. ولا سيما أنها لعبت تلك الورقة معي فإن أرتني الآن أنها بلا حيلة فإنها تهين نفسها بذلك. فضلًا عن أنها كانت تعلم أن زمام الأمور كلها بيدي وأي رد سلبي سيكون بمثابة نهاية الأمل بالنسبة إليها.
لم أستطع أن أراها تتعذب أكثر بنفس الطريقة التي أظهرتها. كنت أنظر في المرآة فقلت: «أنت تعرفين عمق الصداقة بيني وبينه، وإن أراد فإنه لن يقدم على شيء خوفًا من خدش العلاقة بيننا. ولكن إن أقنعته قد يختلف الوضع. أتريدين أم لا؟».
انتعشت رعنا بوضوح. كان على غرورها الأنثوي وشخصيتها العميقة أن تبحث عن رد مناسب. وكنت قد هيأت لها تلك الفرصة بحديثي المطول.
وضعت ساعدها على جبهتها بحيث غطت عينيها: «افعل ما تراه مناسبًا. ولكن لا تقل شيئًا على لساني!».

٤

كانت إينغريد، مثل عصفور يلتقط الحب، تهز رأسها بطريقة مضحكة. وكلما جال نظري في الأرجاء لم أر برنارد. أيعني هذا أنه لم يكترث؟
انتابني الضحك من حركات رأس إينغريد، لا سيما أنها كانت مضطرة إلى أن تنظر إلى كتاب النوتات من طرف عينها للبحث عن النوتات. لم أكن أتصور قط أن فتاة تتمتع بهذا اللطف والجاذبية في وجهها تبدو مضحكة إلى هذا الحد.
وكي أركز على المقطوعة التي كانت تُعزف، قررت أن أتفرج على الجبصين الجداري. ولكن لم يمض القليل حتى انزلق نظري عن صف الرسومات التي تشبه بعضها جميعًا إلى أن وصل إلى إطار الصورة في الطرف الأيمن للقاعة؛ انهار قلبي من الخوف.
كنت دائمًا أخاف من أطر الصور المعلقة على الجدار، مهما كان وسط الصورة. إن وضع صورة أحدهم وسط الإطار يعني ألا أنسى أن جميع أعمالي ستسجل. الآن كان أمري انتهى إلى حد ما في دوائر الدولة. ولكن الآن في قاعة البلدية الهادئة المريحة ذكروني لأول مرة حضور السلطة المطلقة. ثمة صورة لطيفة في إطار متواضع، وكان فيها غول أيضًا ولكن داخل الزجاج. وبلا شك كان كتاب أعمالي يُكتب ولكن لم يكن في الأمر أفعى غاشية ولا منشار يقسمني إلى نصفين.
شعرت بضيق نفسي وبرغبة غريبة في الخروج من القاعة، ولكن ذلك لم يكن ممكنًا. كنت أجلس في الصف الثالث وأية حركة كانت ستفسد كل شيء. نظرت إلى حجم كتاب النوتات الموضوع أمام إينغريد، ولم أفهم شيئًا. رفعت رأسي ومرة أخرى ذهب تفكيري إلى مكان آخر؛ إلى ضيافة صغيرة، إلى غداة ليلة نفيت فيها رعنا إلى المطبخ.
كان الجميع مخمورين ويتحدث كل شخص مع الآخر في زاوية. كنت قد وصلت متأخرًا بعض الشيء وبمجرد أن أنهيت عشائي شعرت بثقل نظرة على وجهي. وقعت عيني في زاوية القاعة على فتاة جميلة كانت تشع في عينيها ابتسامة حنونة ملتهبة. كنت أعرف هذا الوجه، ومع ذلك كانت تلك أول مرة أراها فيها. عدت في الزمن إلى الوراء وأنا أحدق فيها. لا بد أنها كانت رأتني في مكان ما أيضًا، لأنها عادت بالزمن إلى الوراء وهي تحدق في. كنت قد ابتعدت عن وسط أوروبا بكيلومترات عدة، وبين الضباب والذكريات أخذت أتشبث بكل شيء يمر أمام عيني.
فتح الباب ودخل ظل برنارد إلى الداخل. كان قد تأخر مثلي. وبعد أن تناول برنارد صحن طعامه وجرني إليها، اشتعل في داخلي اضطراب غريب. توقف برنارد أمامها: «تعرف على إينغريد».
حين صافحتها نظرت إلى عينيها وفجأة رميت إلى مدينة بعيدة؛ إلى صيف ظهر يوم حار. كان حد الشمس وسط الظهر يفلق الرأس. إلى فتاة ضاعت في النهر. إلى سُمَيلو حيث كانت تدور دمعتان مثل دوامة في بؤبؤ عينيه.
أعادتني لمسة يد هادئة على كتفي من قيظ بعد الظهر الحارق ذلك ثانية إلى داخل القاعة. كان السيد الذي وصل متأخرًا يحاول الجلوس على كرسي خال ورائي. ابتسم ابتسامة فهمت معناها بصعوبة.
كان موعدي مع السيد في الساعة السادسة. حين رأيت رعنا بتلك الحالة اتصلت بها مباشرة: «يجب أن أراك بأسرع ما يمكن».

- تعال إلى مقهى «الفنارات» سأنطلق إلى هناك مباشرة.
- لا أستطيع. إينغريد لديها ثلاث حفلات موسيقية في الساعة الثالثة.
- متى تنتهي؟
- لا أعرف. إنها من تلك الحفلات التي تجريها البلدية في مناسبات خاصة بين الحين والآخر.
- في أي بلدية؟
- هنا قريب منا.
- إذًا سآتي أنا أيضًا. عندما ينتهي الحفل الموسيقي سنذهب إلى المقهى.
مرة أخرى حاولت أن أركز انتباهي على الموسيقى؛ في جوٍّ من صوت المزمار والقيثارة أخذ ذلك العصفور يلتقط الحب ثانية. كان عازف القيثارة رجلًا متزنًا جافًا يجلس مثل تمثال من شمع ويحرك يديه بحركات
بسيطة فقط حين كان يريد أن يعزف على النغمات العليا. رفعت رأسي كي لا تقع عيناي على حركات إينغريد المضحكة، غير أن ظل السيد الثقيل الذي كان قد انحنى وكأنه ينتظر الفرصة ليخبرني بشيءٍ مهم أخذني إلى مقهى «الفنارات» حيث ستبدأ مبارزة لا تشبه أي مبارزة أخرى. وكانت هذه اللحظة التي سيحدد فيها مصير العديد من الأشياء. كانت بلا شك تفعل ما هو أعقد من ذلك لتسمح لي بقراءة حركات وجهها. ولكنني في هذه السنوات تعلمت أيضًا أن أنتبه إلى جزء واحد من هذا القناع الضاحك الذي كانت تضعه على وجهها وهو الخط الرفيع تحت جفونها!
سيطر شعور بالنهاية باشتداد حركات رأس إينغريد وحدّة نغمات جملها على المحيط وعندها عدت إلى داخل القاعة.
بينما كان السيد يصفق تمتم قرب أذني: «بالله عليك لا تفقد هذه أيضًا!».
بينما كانت إينغريد تحيي الجموع الهاتفة كانت تنظر يمينًا ويسارًا وما إن وقع نظرها علي حتى ابتسمت واستدارت إلى عازف القيثارة.
التفت إلى السيد: «سأتحدث مع إينغريد قليلًا، ثم نذهب إلى مقهى «الفنارات».
شققت طريقي باتجاه المنصة من خلال الجموع التي تتجه إلى باب الخروج. طوال الوقت كان تفكيري في مكان آخر والآن كان يجب أن أعلق أيضًا.
كان هناك عدد من الأشخاص قد وصلوا إلى المنصة قبلي. كانت إينغريد تتحدث مع رجل شعره منسدل على جبهته، وبمجرد أن وقعت عيناها علي سارت نحوي بسرعة. ومرة أخرى كانت تلك الفتاة اللطيفة التي تشتعل في عينيها ابتسامة حنون لاهبة. قبلتني بحرارة وكان الرجل الذي لم يكمل حديثه ينظر إلينا مستغربًا.
أقلقتني حركة إينغريد السريعة، فقلت لها: «يعطيك العافية».
فاحمر وجهها خجلًا: «لم يكن كما أردت».
- لماذا؟
مسحت وجهها بإحكام وكأنها تريد أن تمسح بقعة وهمية: «كان مزاجي عصبيًّا قليلًا».
- كان ذلك واضحًا.
- كيف ذلك؟
- كنت تتحركين كثيرًا.
- أصابني الخوف.
كنت أعرف لماذا، ومع ذلك فإن رغبة شيطانية دفعتني إلى أن أحفر حفرة ثانية لنفسي: «لماذا؟».
ضحكت ووضعت يدها على كتفي: «بسبب وجودك..».
«بسبب وجودك...!». هه! بسبب وجودي أم بسبب وجود بافاروتي؟ مسكينة إينغريد! ولأغير الموضوع قلت لها: «كأن برنارد لم يأت؟».
- ذهب ليرى القاعة.
- أي قاعة؟
- ألم يخبرك؟
- بماذا؟
- اتفق مع شركة إنتاج أسطوانات. علينا أن نبدأ التدريب بعد يومين أو ثلاثة.
وضعت سيجارة في شفتي، وحين أردت إشعالها حدقت عيناها الجميلتان بي مباشرة: «إن لم تكن تستطيع ترك التدخين فعلى الأقل قلل من عدد المرات التي تدخن فيها، فهذه أكبر فرصة لحياتنا!».
أشعلت سيجارتي وأدرت رأسي بلا إرادة. ومرة أخرى وقعت عيناي على إطار الصورة!

٥

خيم صمت مميت على الطابق السادس لبناء إريك فرانسوا شميت.
حتى جرس كنيسة «سانت بول» الذي كان يجب أن يقرع في الساعة العاشرة ليلًا كان صامتًا. كانت بنديكت التي جمعت تماثيل الخشب والقطع المتناثرة لبساط نجارتها في زاوية قد ذهبت إلى غرفتها في الساعة الثامنة كالعادة، ولم يكن هناك أثر لبروفت الذي أصبح الآن الحاكم الليلي للطابق بلا منازع. وكأن رعنا حين غادرت وضعت اضطراب وشر هذا الطابق في حقيبتها وأخذته معها. وبذهابها وصل الأمر إلى نهايته ولكن كان كل شيء ينبئ بأن هذا الصمت يحمل أشياء أخرى داخله؛ مثل الصمت بعد المؤامرة. وفي اليوم التالي فقط يتبين مقدار ما فقده كل شخص في هذا الصمت الثقيل لليلة البارحة.
لم يكن هناك أي صوت يصدر من غرفة بروفت. لا وقوع زجاج على الأرض ولا صوت رسمه على الحائط ولا حتى صوت بصاقه المقزز لينظف صدره.
اعتدت على غياب علي وكلانتر اللذين كانا في أغلب الأوقات حارسي الفندق ليلًا. كما أن أمانويل كانت تعود ليلًا إلى الطابق الثالث حيث عائلتها. ليت يظهر فريدون الذي اختفى. أو يصل ميلوش وأصدقاؤه من جماعة «البانكيين» ويتعاطون الحشيش ويقلبون البناء بضحكاتهم.
أما الآن إن أردت الذهاب إلى المطبخ أو الحمام، وكان بروفت قد كمن لي وراء جدار الدرج أو في ممر الحمام الصغير، فمن سيحمل نعشي؟
وفجأة شعرت أنني وقعت في فخ. كانت هناك يد مبهمة؛ في البداية أخلت ما حولي بمهارة لكي لا يصل صراخي إلى أي أحد، ثم كمنت لي حتى يحين الوقت وتغرز السكين في ظهري.
لم يكن الأمر بلا مبرر أنه لم يكن يصدر صوت من بروفت. لا يوجد صياد يكشف وجوده عند الصيد. كان يسلم نفسه إلى المشقات المتعاقبة في الفواصل المنظمة للشهيق والزفير لدرجة يسمح لفريسته بأن يستشعر رائحة عدمه في ذرات الهواء المحيطة به. وحين تجمد عروقه من لذة الراحة يحين وقت الإصابة. وأنا الذي كنت صيادًا وعلى علم بقوانين الصيد التي لا يمكن تجاوزها وكان صمت واختفاء الصياد فقط ما يجعلاني مضطربًا. كنت سأموت من دون أن تكون هناك لحظة قبل الموت تجمد فيها عروقي من لذة الراحة. يا له من يوم ثقيل! ويا لها من ليلة أثقل من نهاره!
حين نهضت في الظهيرة فهمت أولًا من قصة رعنا بذلك الوضع المؤثر، ثم حفل إينغريد وخبرها المشؤوم ذاك، وفي النهاية من لقائي مع السيد ما القبر الذي حفرته لنفسي.
حين وضع النادل فنجان القهوة على الطاولة كان يبدو وكأنه حكم أحضر الأسلحة الحربية، وقد وقف جانبًا ينتظر أن تبدأ المعركة، وأخذ ينظر إلينا.
جعل الصمت الثقيل طاولتنا أخفض من بقية طاولات مقهى «الفنارات». كان السيد قد خيم على الطاولة مثل محترف متأكد من فوزه من البداية ومرة أخرى أعاد ذلك القناع الضاحك والجاذبية إلى وجهه كالسابق. ومع أنني كنت قد قلت له أن لدي مسألة مهمة فإنه لم يكن قلقًا على الإطلاق.
كان النادل ما يزال واقفًا ينظر بابتسامة شيطانية على شفتيه الرفيعتين اللتين تبدوان كالخيط. وضعت يدي على الطاولة وحدقت بعيني السيد مباشرة: «هذه الفتاة على وشك الموت!».
تراجع السيد إلى الوراء وعبس. هل تسمر فعلًا في مكانه؟ أم أنه قد انتبه لتوه أن الإيماءة الأولى حركة خاطئة؟
قلت له: «لقد مضت ثلاثة أيام لم تأكل فيها شيئًا. تتمدد على السرير هكذا وتحدق بالسقف!».
كانت حركة العروق الرفيعة تحت جفني السيد تشير إلى أنه قد أدرك اتجاه حركتي.
قلت له: «أعرف أنها تعجبك أنت أيضًا».
تحركت عضلات وجه السيد: «إن كنت آخذها إلى غرفتي فذلك لكي لا تزعجك وأنت تعمل!».
لم يكن لدى الأشخاص في الغرف العلية حياة خاصة وكان أي موضوع خاص يتحول إلى موضوع عام مثل مرحاض ذلك الطابق.
وبعد أن سلمت رعنا المطبخ مثل الإسرائيليين الذين اتخذوا سياسة الأرض مقابل السلام لكي أستعيد استقلالي مجددًا، كانت أحيانًا تزعجني بأية ذريعة وكان السيد يعلم بمجريات جميع تفاصيل هذه القضية. في الليلة الثالثة من تسليم المطبخ مقابل السلام وبالضبط ثلاثة عشر يومًا قبل هجوم بروفت
على السيد كنت مشغولًا بعملي حين ملت رعنا ثانية وأتت إلى غرفتي. وبعد مدة قصيرة حين عاد السيد من عند زوجته أو من عند شخص آخر كالعادة أتى إلى غرفتي ليطمئن على أحوالي. وحين رأى سوء خلقي نهض ليغادر، عندها قلت له: «أجلس لنشرب الشاي».
- علي أن أذهب. أريد أن أطبع العمل الذي أنهيته مؤخرًا.
وقالت رعنا التي رأت الفرصة مواتية: «إن أردت أستطيع مساعدتك، فطباعتي ليست سيئة».
لبث السيد وارتجف العرق الرفيع تحت جفن عينه الأيسر: «ليس أكثر من بضع صفحات. سأطبعها بنفسي رويدًا رويدًا».

استغربت رعنا التي خاب أملها. أما السيد الذي كان على وشك المغادرة، فجلس نصف ساعة بدافع اللطف وبلا سبب أو داع، بعد ذلك حين أراد المغادرة التفت إلى رعنا وقال: «أكان عرضك جادًا؟».
اتسعت حدقتا رعنا: «أنا لا أجامل. هكذا أشغل نفسي بعمل ما».
ومنذ تلك الليلة ورعنا في غرفة السيد وعلى الرغم من أن ذلك أفسد لعب الشطرنج ليلًا إلا أنني بالمقابل هدأت نوعًا ما. كان السيد راضيًا كثيرًا ومع أنه كان قد قدم تضحية كبيرة لكنه بالمقابل أصبح كثير المشاغل؛ ومع أنه قبل الآن كان يكتب بضعة سطور فإنه أصبح الآن ينهي قصة كل ليلة وكانت رعنا تطبع حتى الصباح بسرور تام.
كان نادل مقهى «الفنارات» ينظر إلي. وضعت يدي على الطاولة مرة أخرى محدقًا مباشرة بالسيد: «إن هذا شيء آخر. يجب إنقاذها من هذا الوضع».
- أرجو ألا أقع في المشاكل؟
- فليكن ضميرك مرتاحًا من ناحيتي.
- أنا لا أقدم على شيء يؤذي صديقًا.
- يمكنك أن تطمئن أنني لا أكن أي مشاعر تجاهها. وهذا الاهتمام القليل الذي أبديه لها فقط بدافع الشفقة.
تحرك العرق الرفيع تحت جفن عين السيد الأيسر وبينما أكد على عدم «وجود مشاعر» قال ضاحكًا: «من أين لي أن أعرف إن كانت تكن أي مشاعر تجاهي؟».
قلت له: «لنذهب». وبينما أنا أضع قطعتين نقديتين من فئة العشر فرنكات على الطاولة أضفت قائلًا: «أنت عذابها! ولكنها قالت ألا أقول شيئًا من جانبها».
تقدم نادل المقهى وبينما كان يتناول البقشيش ابتسم لي.
حين خرجنا من المقهى نثرت ريح باردة أوراق الأشجار الجافة على وجهينا ورأسينا. كانت غيوم سماء الخريف تغطي باريس وكان هناك خوف من هطول المطر في أي لحظة.
عندما وصلنا إلى بوابة البناء توقف السيد فجأة: «هل سيأتي ذلك المجنون ثانية ليضع سكينه على رقبتنا؟».
- إذًا، انتبهت أنني آخذك إلى المذبح.
- حتى إن أخذتني إلى جهنم سأذهب معك.

٦

منذ ليلة الحادثة أصبح ذلك الطرف من المبنى هادئًا بالكامل، ولم يعد يسمع صوت أوبرا كارمن من غرفة أمانويل؛ ولو لم يسمع صوت كمان ميلوش لحسبت أن حركة سكين بروفت قتلت أحدًا ما في هذا الطابق وبقي رأسه في غرفة السيد وجسده في غرفة ميلوش وأمانويل.
لم أكن أرغب في العمل، وكنت مستلقيًا هكذا على السرير أحدق بالسقف. كانت معدتي فارغة ولكنني لم أشعر برغبة في الذهاب إلى المطبخ لأنه كان قد أصبح قبرًا.
حين أتيت مع السيد عند الغروب ووصلنا إلى الطابق السادس اتجه السيد إلى اليمين وطرق باب المطبخ. أنا أيضًا اتجهت إلى اليسار وذهبت إلى غرفتي، وتمددت على السرير وتناولت كتاب «الكنز المحروق» الذي وصل إلي مؤخرًا، وفتحت صفحاته بعشوائية.
كان تقريرًا لمكسيم بيك أول ممثل لشركة جرامافون وقد أتى إلى إيران في زمن الشاه مظفر الدين:
«الإيرانيون جنس له سمة التجار، وهم أذكياء ونشطون. لكن طريقة تفكيرهم ومعاملتهم آسيوية بالكامل. يتأخرون في كل عمل ويؤجلون كل شيء. والوعد الذي يعطيه الإيراني لا قيمة له، وقول كلام باطل يمكن غض الطرف عنه. نساؤهم مسرفات جدًّا ويشترين أي شيء يلفت أنظارهن من دون اهتمام لسعره. إن الإيرانيين يشبهون الأطفال من نواح مختلفة، ويميلون إلى الاستغراب والانبهار، فالأشياء الجديدة والصاخبة والبراقة تلفت أنظارهم».
شتت مواء قطة بنديكت، التي جاءت وراء باب غرفتي بالضبط، انتباهي. فتحت الباب قليلًا، كان الممر هادئًا بالكامل. نظرت إلى القطة بنظرة موبخة. درت حول نفسي قليلًا، ثم ذهبت وطرقت باب المطبخ. عندما فتح السيد الباب اعتذرت له بخجل وحياء قواد متواضع المؤهلات ودخلت. أخرجت قنينتي بيرة من الثلاجة وضيفتهما بعد ذلك. ملأت الإبريق بالماء ووضعته على النار وبينما كنت خارجًا قلت كقواد محترف: «حين يغلي ضعوا الشاي فيه».
استلقيت على السرير مرة أخرى؛ لم أكن أرغب في قراءة مكسيم بيك. تناولت كتاب «ذكريات مشتتة» لفرناندو بسوا: «خلقت في نفسي شخصيات مختلفة. أنا أخلق هذه الشخصيات بلا توقف. بمجرد أن تمر كل تخيلاتي من ذهني تتحول بلا أي تغيير من قبل شخص آخر يراها، إلى حقيقة. من قبله وليس من قبلي أنا. لقد دمرت نفسي لأخلق ذاتي».

مضت فترة لا أتقدم فيها؛ وكلما وصلت إلى هذين السطرين اللذين وضعت تحتهما خطًا كنت أغلق الكتاب وأحدق بغلافه. كان فرناندو بسوا ظلًا يعبر على بلاط الشارع المتلاشي الذي يشبه أرض الصحراء المتشققة. هناك رسالة في عينيه المضطربتين تجرني في اتجاه درج طاولتي كلما حاولت كشفها.
أفتح الدرج وللمرة الألف أفتح دفتر المذكرات ذا الغطاء الجلدي الذي أوصى الضابط السابق بإعطائي إياه. تقع عيناي على رسالة الإهداء في الصفحة الأولى وأقلب صفحات الدفتر بابتسامة مريرة:
«كانت خاتون امرأة جمعت كل حظوظ العالم في مكان واحد. فقدت أمها منذ إطلالتها على العالم حيث بقي الحبل السري في الرحم؛ وحتى تقطع القابلة الحبل السري بأداة تقطيع القند(٩)، كانوا قد سلموا الطفلة إلى أمها.
صرخت الأم وبعد لحظة طارت نظرتها كسنونوة مذعورة تخفق صوب ضياء الصباح الآتي من وراء النافذة.
وبعد ثلاث سنوات مات الأب أيضًا، واضطرت خاتون الصغيرة إلى الذهاب لمنزل خالتها. لم يكن منزل خالتها سيئًا، ولكن لم يمض الكثير من الوقت حتى توفيت الخالة أيضًا، وذهبت خاتون البالغة من العمر تسع سنوات إلى منزل خالها الأكبر. كان الخال في الأربعين من عمره يدخن الغليون طوال الليل ويحدق بنقطة مظلمة في زاوية الباحة. وشيئًا فشيئًا وصل تهامس غامض انتشر بين الأقارب إلى أذن الخال. فشلت محاولات الخال المذعور في إيجاد زوج لخاتون. فقد انتقل التهامس من فم إلى فم بين سكان القرية.
وكلما كبرت خاتون كان شبان القرية يصبحون بلون أصفر وهزيلين. وفي الليل كانوا يتناجون بنجوى غامضة بدافع الغضب.
- لا تنظر إلى وجهها الجميل يا ولدي! لقد رأيت بأم عيني أن لديها ستة أصابع!
- لا بأس، لا بأس انظري إلى عينيها، إلى هذا الجسد وهذه القامة!
- إنها مشؤومة منحوسة! منذ وفاة أمها المسكينة عند ولادتها، وأبيها الشاب، وخالتها المسكينة!
بعد ست سنوات مات الخال الأكبر أيضًا، واضطرت خاتون البالغة من العمر خمس عشرة سنة حينها أن تنتقل مجددًا إلى مكان آخر.
وفي اليوم الذي أخذها خالها الأصغر إلى بيته، وحين أراد أن يفتح الباب ارتعشت يده فاضطرب رتاج الباب.
بكت خاتون وركضت إلى النهر. حضنها خالها عند الماء، وبينما كان كتفاه يهتزان ألصق وجهه المبتل بخمارها المزين بالزهور.
في اليوم التالي باع الخال كل أملاكه وأخذها إلى مكان لا يرون فيه أحدًا يعرفونه».
بقية الخواطر شرح تعرف الضابط السابق بهما. حين دخل الضابط السجن كان عمره خمسًا وثلاثين سنة وحين خرج، كان قد بلغ الخمسين. حين كان يعود من عمله اليومي كان يعد الطعام ويدعو معارفه إلى بيته. كان على تلك الجروح القديمة أن تشفى وهي التي سعى من أجل التئامها كل هذه السنين وأمضى كل هذا
الوقت في السجن. وأصبح الآن يواجه حربًا آمنة بطنجرة ومرسم وصحن.
«««كانت خاتون وخالها يساعدان باستمرار. ولكن كلما وجد خاطب وكاد الأمر أن يفلح أفسدت قصة الإصبع السادس الأمر كله.
في النهاية حين كان الخال على فراش الموت كانت جميع محاولاتي لتحسين حظ خاتون قد باءت بالفشل. ناديتها من دون الاهتمام بسمعتي ومستقبلي وأجلستها عند فراش خالها: «أنا بمثابة أب لك ولكن إن أردت أستطيع أن أكون زوجًا لك أيضًا».
وبينما كانت خاتون تمسك بيديها المرتعشتين أجهشت بالبكاء أمامي وقالت: «وهل لي أحد غيرك وغير خالي!».
في نفس الليلة عقد قران الضابط السابق الذي كان في الثالثة والخمسين على خاتون التي كانت في الثالثة والعشرين من العمر وحين انتهت الخطبة وضع الخال رأسه على كتف الضابط السابق وأخذ يبكي.
«لم أفهم أبدًا أكان بكاء الخال في تلك الليلة لسعادته الغامرة أم لشيء آخر».
طُرق الباب فأخفيت الكتاب باضطراب تحت الفراش وفتحت الباب. قال لي السيد بصوت مخنوق: «من فضلك تعال للحظة إلى المطبخ».
وفي المطبخ تحدث السيد بصوت مخنوق أيضًا، فذؤابة سكين بروفت لم تترك نقطة آمنة.
- نحن سنغادر.
كانت حقيبة رعنا وسط المطبخ ورعنا تقف إلى جانبها منتظرة.
حدقت بحامل الحقيبة في النقطة التي كانت عينا السيد ثابتة عليها.
رفع السيد بصره عن الحقيبة: «فكرت أن آخذ رعنا معي إلى منزل أنابيس؛ فليس من الخير أن تبقى هنا بوجود هذا المجنون».
ثم حمل الحقيبة وانطلق. كان في وجه رعنا تأثر وامتنان مختار بذكاء تجنبًا للتصنع؛ وكان من المفترض أن تحل مكان الكلمات التي تبدو غبية بأي حال. إلا أن قناع التأثر والامتنان هذا كان متصنعًا بالقدر ذاته.
عند الدرجة الأخيرة رفعا رأسيهما ليودعاني للمرة الأخيرة. وتحركت رؤوسنا وأيدينا نحن الثلاثة سريعا وبشكل أحمق تتشكل فقط في لحظات فقد فيها الكلام معناه.
بعد ذهاب السيد ورعنا بساعتين لم يكسر الصمت المميت الذي خيم على بناية إريك فرانسوا شميت أي شيء. حتى أن جذور نباتات بنديكت توقفت عن الحركة. كنت متأكدًا لو أن ذلك الصمت استمر قليلًا لكنت جننت. إلا أن صوت الأصابع التي كانت تقرع باب غرفتي جعلني أتسمر في مكاني!

٧

كانت بقايا النور أيضًا تختفي شيئًا فشيئًا. كان جالسًا على الكرسي بلا حراك وكنت أرى فقط رسمًا مبهمًا لوجهه وكلما زاد الهواء غلظة أصبح هذا الرسم المبهم أشبه ب «م أ ر»، هل...
كانت تستطيع أن تقول لي! ألم أسمح لها؟ لماذا لم تحاول على الإطلاق؟ لم عليها أن تحاول؟ كي تحيرني أكثر؟ متى جعلت أحدهم محتارًا؟
أجل، لقد كانت تحيرني أيضًا. كانت مجرد مرآة تعكس صورتي. وكانت هذه الصورة العشوائية المزيفة تجعلني أشمئز من نفسي.
كنا قد ذهبنا إلى ضيافة منزل أحد السفراء، أيًا كان فكان إما سفيرًا أو رجلًا مهمًا، وأنا كذلك. كان لي أهمية في ذلك الحين. لم أكن أفضل الغناء أثناء التدخين وشرب الكحول. كانت «م أ ر» شخصًا مهمًا أيضًا. كانت عارضة أزياء وممثلة.
لم يمض أسبوع على تعارفنا. كانت في تلك الليلة ترتدي ثيابًا جميلة وكنت سعيدًا لأنها بمحياها الحسن وحركاتها المتزنة تزيد من منزلتي. حين انتهيت من الغناء نهضت لأرطب حلقي حيث كان أمامي مستشار الهند الثقافي، وقبل أن أقدم على شيء ما ألقى علي خطبة مفصلة عن وضع اللغة الفارسية في الهند وتأثير هجرة الشعراء والفنانين الإيرانيين على تلك البلاد.
وفي لحظة غفلة مني، خلعت «م أ ر» حذاءها وجلست على طرف حوض وسط قاعة الاستقبال.
كانت تتصرف على سجيتها، أما أنا فكنت قلقًا من حكم الآخرين علي. بحثت عن حذائها كالأبله.
رميت الحذاء أمامها، وبعيدًا عن أعين الآخرين صرخت في وجهها بأنه إن لم تنتبه إلى تصرفاتها فإني لن أراها ثانية.
بعد قليل حين نادونا للعشاء كانت «م أ ر» قد اختفت. ظننت بغبائي أن مشاعرها جرحت، لذلك غادرت بصمت حتى لا يسود وجهي أكثر من ذلك.
وحين كنت أخرج من قصر السفير الجميل قلقًا، وقع بصري على مسبح كبير وسط الحديقة الواسعة؛ كان فارغًا حينما أتينا والآن كان هناك شيء يتموج وسطه. تسمرت في مكاني؛ كان ثوبها الحريري على أرض المسبح الأزرق بحيث أبقى عقلي معلقًا بين اليقظة والحلم. ورأيت حورية بحر صغيرة منفية من المياه البعيدة إلى هذا المسبح، وكانت تغني بصوت حزين حسرة على البحر الضائع.
حين تأكدت من أنني لا أحلم، دفعني تصرفها المدهش إلى مدحها بلا إرادة، وحين عدت إلى وعيي بأنني في بيت السفير الإيطالي تذكرت سمعتي المهدورة وتملكني الغضب كليًا: «لماذا ذهبت إلى المسبح؟».
وبينما كانت تمشي وسط المسبح بعفة الأطفال تمتمت قائلة: «رأيته فارغًا فملأته».
كنت أغبطها. كنت قلقًا من حكم الآخرين علي، أما هي فحررت نفسها من قيود الحكم. كنت أعيش في صورة أردت أن يراها الآخرون عني، أما هي فكانت تعيش بلا صورة.
فضحني وجودها على الملأ فأمسكت يدها وخرجت من البيت بصمت.
والآن بقيت أنا والبقايا السميكة لذلك اليوم. كان يجلس على الكرسي، وكلما ازدادت عتمة الغرفة ازداد شبه وجهه المبهم والغامض بوجه «م أ ر».
جلسنا وكأن كلًا منا كان ينتظر لحظة النهاية. مثل ليالي القصف حين كنا نجلس في العتمة منتظرين الموت من دون أن نعلم من أين سيأتي ومتى.

٨

منذ ليلة هجوم بروفت على هذا الجانب، تعد كل ضربة على الباب بمثابة جرس إنذار بالنسبة لي وتجعلني مضطربًا. كنت قد قلت لرعنا أن تطرق الباب برقة شديدة في أي وقت تحتاج إلى شيء لمنع الذعر، فقالت رعنا خائفة: «كلا، إن هذا يذكرني بليلة نقر بروفت».
- حسناً، برقة شديدة كل مرة ثلاث دقات.
والآن كان أحدهم ينقر على الباب وعندها فقط فهمت ما العذاب الذي تحملته رعنا حتى الصباح؛ ربما كانت هذه أول مرة أدركها.
ومرة أخرى سمعت صوت خفيف للنقر على الباب. عندها فكرت ليت لدى باب غرفتي عدسة عندها سيكون من الممكن رؤية الخارج بكل سهولة ولا أضطر إلى كل هذا التفكير والتخيل. ذهبت إلى الباب: «من؟».
انكسر صوتي في حلقي من شدة الاضطراب؛ سمعت صوت سعال مألوف من الممر: «هذا أنا، علي».
فتحت الباب بهدوء. تراجع علي بحيائه المعتاد وخجله: «هل أزعجتك؟».
لم يكن لم يزعجني فقط بل وانتشل هذا البناء من الغرق في مستنقع الرعب والصمت. مرة أخرى عادت جذور نباتات في أصص بنديكت إلى النمو. تناولت مفتاح المطبخ وقلت بصوت هادئ: «لنذهب إلى هناك».

ومنذ أن وصل علي إلى التكية كان قد تغير بالكامل؛ كان يمشي بهدوء ويتحدث بلباقة وحين يريد أن يدير المفتاح في قفل الباب كان يعمل بتأن شديد كأن الأبواب كانت تفتح بالنجوى لا بالمفتاح. كان بالضبط مختلفًا عن بروفت الذي حين يخبط بقدميه يولد أمواجًا غير مرئية من التشنج والاضطراب على الأبواب والجدران.
عندما أغلقت باب المطبخ جاملته ليجلس. فجلس على طرف الكرسي وكأنه يؤكد لي أنه لم يرد إزعاجي بأي شكل وأنه سيذهب بسرعة خلال لحظة. ثم تحرك وقال لي بابتسامة حنونة وخجولة: «ألا يوجد أثر للسيد؟ مهما اتصلت لا أحد يجيب على الهاتف».
- بعد هذه الأحداث ذهب إلى منزل زوجته أنابيس.
- أي أحداث؟
خفضت صوتي بلا إرادة: «أحداث بروفت».
- أحداث بروفت؟
- ألا تعلم؟
- كلا، كنت مسافرًا.
كان علي يتمتع بعلاقة خاصة مع السيد. على عكس السيد الذي أتى إلى هنا قبل أحداث الثورة، اضطر علي إلى أن يهرب عن طريق الجبال. كما أنه عانى هنا من مصائب كثيرة ليثبت الأرض تحت قدميه. بعد ذلك تزامنت أيام النفي الطويلة ووضوح علائم الانكسار مع فشله في عشقه لفتاة فرنسية. في مراحل الانكسارات المتداخلة هذه كان وجود السيد، الذي كان شخصًا دمثا وحنونًا وودودًا، غنيمة بحد ذاته. وليستفيد من هذا الوجود الودي والهادئ كان يعد الطعام وحين يحل الظهر كان يطرق باب السيد ويدعوه إلى الغداء ثم يذهبان إلى السينما أو المقهى.
إن معرفتي بالسيد وتواصلنا الدائم غيرا حياة علي. كان صوت رنين هاتف السيد يوقظني دائمًا في الظهيرة: «قهوتك جاهزة». وحين كنت أدخل كان يضع القهوة أمامي وإلى أن ندخن سيجارة ونتحدث قليلًا، كان الغداء جاهزًا. بعد ذلك نلعب جولتي شطرنج وحين يحل العصر نذهب إلى مقهى «الفنارات». وعند الغروب كان كل منا يذهب إلى مواعيده الخاصة، وفي آخر الليل نلعب الشطرنج مرة أخرى، حتى الصباح بلا توقف.
لهذا السبب لم يكن هناك مجال أن يلتفت السيد إلى علي مما أضاف هذا الهم أيضًا إلى مصائب علي السابقة، لأنه اعتاد على وجود السيد بشكل شديد فأصبح سيء الخلق. ولم يكن يستطيع النوم حتى الصباح وكان دائمًا يتشاجر مع زبائن الفندق. وحين علا صوت ضجة الزبائن طرده صاحب الفندق من العمل والأسوأ من ذلك حين كان يعلم أننا نلعب الشطرنج يزداد حنقه.
وكلما كان السيد يريد أن يذهب إلى الحمام ويضطر إلى المرور من أمام غرفة علي كان علي يتنحنح بصوت عال لكي يذكره بوجوده. وإن لم ينتبه السيد لهذا الشكل الغريب والطلب الرقيق كان ينهال عليه بسيل من التقريع يأتي من أسفل باب غرفته: «مضت ساعتان وأنا أحاول النوم، ولا أستطيع بسبب صخبكما!». «لا أحد يشد سيفون الحمام في منتصف الليل! لقد تناولت أقراص المنوم عدة مرات وكل حين توقظاني!».
وفي إحدى الليالي سألت السيد: «أليس هذا حب مولوي لشمس(١٠)؟».
- التقى مؤخرًا بأحد زملائه المحاربين السابقين وقد انتهى أمره الآن في التكية. وقال المحارب السابق لدرويش اليوم: «تعال لآخذك إلى مكان لتفهم ما هو الحب».
ذهب علي وعندما عرف ما هو الحب، وجد عملًا أفضل في فندق أفضل. كان في أغلب الأوقات يقوم بطباعة النشرات التي كانت بنفس الأسلوب والسياق لنشرات المؤسسة السياسية التي كان ينشرها للتكية. وكان في الليل ينام مرتاحًا ولم تعد اضطرابات الخسارة تؤلمه ولا ذهاب تلك الفتاة الذي دمر حياته، ولا أخبار أوضاع البلاد غير السارة التي كانت تصل ولا غياب السيد الذي كان قد وجد لنفسه مشاغل أخرى؛ ومنذ ذلك الحين كان نادرًا ما يرى السيد. فقط من أجل أن يرغبه بهذه العوالم الجديدة.
وحين سمع بحادثة السيد وبروفت لم يهز ذلك هدوءه. وضع يده أسفل ذقنه واستند إلى ظهر الكرسي وقال وكأن عددًا من الذباب يطير فوق رأسه: «إنه مدار! حين تخرج الذرة عن مدارها يمكن أن يسبب ذلك اضطرابًا إلا أن ذلك الاضطراب يحدث للذرة لا للمدار وذلك الاضطراب بحد ذاته لا بد أنه ضروري للذرة. أساس العالم مرتكز على مدار. من أصغر ذرة إلى كل الكون»....
وبينما كان يكرر تعاليم مرشده مثل الببغاء قلت في نفسي ليتني كنت أنا أيضًا أستطيع إطاعة تعاليم الرجل الذي يحمل دكتوراه في علم فيزياء الكون وبدل أن يذهب إلى بلده حيث يعاني الناس من آلاف المصائب يصنع لهم قنبلة، فضل أن يستقر هنا ويبيع الهدوء لأناس يتمتعون بكل شيء إلا «عالم المدار». ولكن لسوء الحظ في تلك الأيام حين كنت ما زلت أستطيع أن أطيع امرًا التقيت برجل خيب ظني.
كان يرتدي عمامة وعباءة ولكن لم يكن هناك تناسب بين أي شيء من ثيابه. كان قد تجاوز خمسًا وخمسين سنة من عمره، إلا أنه كان ما يزال يعيش في تلك الحجرة الصغيرة التي تعود لأيام دراسته في المدرسة الدينية، ولم يكن هناك أي شخص يعرفه بصفة حجة الإسلام (١١). وفي ذلك المكان حيث كان الجميع فيه منشغلين دائمًا بآداب الطهارة، كان هو غارقًا في فلسفة الإشراق للسهروردي والحركة الجوهرية لصدر الدين الشيرازي، ومآسي «سوفوكليس». عندما كان يأتي إلى بيتي كان يتحدث مع زوجتي غير المحجبة وكأنه يتحدث إلى رجل.
لم يكن يشرب ولكنه كان منتبهًا إلى كؤوسنا فكلما وصلت إلى آخرها كان يملؤها بتأن وحبور خاصين. عندما وصل إلى غرب البلاد أحاطت به إحدى الفرق هناك: «لقد وعدونا بمجيئك».

- هذا كذب.
ألحوا عليه: «قيل لنا أنك ستنكر ذلك».
لذلك اضـطر إلى البقاء. كانت تلك النقطة السـوداء في حياته التي لم أكن أفهمها. وفي النهاية اسـتجمعت جرأتي في أحد الأيام: «لا تبدو بأنك ممن يبيعون السعادة».
فملأ كأســـي الفارغ وقال: «أنا لســـت طبيبًا ولا مهندسًـــا ولا كاتبًا. إن كانوا يظنون أن لدي مرهمًا لآلامهم التي لا تشـــفى، فلم أحرمهم؟».
- أهذا صحيح أنهم يأكلون النار ولا يحترقون؟ ويلمسون الكهرباء ولا يصعقون؟
- صحيح.
- أيمكنك أنت أيضًا أن تفعل هذه الأشياء؟
- لا يمكنني.
- كيف ذلك؟
- هم يفعلون ذلك لإيمانهم بي أما أنا فبمن أؤمن لكي أفعل ذلك؟
كان علي يجلس بشكل معوج على طرف الكرسي منذ بدء وصوله ما جعلني أعتقد أنه سيغادر بمجرد أن يحس بأقل انزعاج. والآن لا بد أنه رأى عيني المحدقتين في الفراغ مما دفعه إلى النهوض من مكانه. وفجأة خطر في بالي أن مفتاح مهدي الغامض قد يكون معه، ففي النهاية أنه كان من سكان هذا الطابق القدماء.
- أتعرف أحدًا هنا باسم مهدي؟
- هنا كل واحد لديه عدة أسماء. أنا اسمي علي ولكن قبل ذلك كانوا ينادونني حيدر. وفي وقت ما كان مجيد.
ثم أضاف بابتسامة خجولة: «قبل الانقسام، كان كلانتر اسمه مجيد ولكنهم ينادونه حسين أيضًا واسمه الآخر أيضًا محسن. كان تقي الذي كان سابقًا يجلس مكانك ينادونه علي ومحمد. لا أعرف بروفت لكنني أعرف أن اسمه حسن. ورأيت أنهم ينادون فريدون مرة أو مرتين بمرتضى. كما أن السيد هو الاسم المستعار لكوروش، لكن مهدي... كلا، لا أعرف أحدًا بهذا الاسم».
بدأت أشعر بالدوار. كان الطابق السادس لمبنى إريك فرانسوا شميت الذي ازداد عدد سكانه فجأة أصبح مزدحمًا بأشخاص مجهولين لهم وجوه متشابهة.

٩

كنت قد اسـتيقظت للتو حين جعلني صـوت غريب أنهض من سـريري وعندما فتحت الباب دخلت كومة غبار أبيض إلى غرفتي. أغلقت الباب بسرعة وبينما كنت أسعل تراءى لي شبح يغطي رأسه ووجهه بقماش أبيض وبينما هو يمسك بمسن كهربائي مثل الرشاش كان واقفًا على عتبة باب غرفة فريدون المفتوح.
منذ ليلة الحادثة اختل جانب من حياتي بشدة. كل صوت كان يصدر من غرفة بروفت كان بمثابة جرس إنذار، ويسحبني داخل حالة تشنج واضطراب؛ وبمجرد أن يعلو صوت الكرة الزجاجية كنت أنتظر الحركة القادمة لأتوقع ما سيصيبه مسبقًا. ومع كل حركة سرير جان جوريس الذي أصبح مكان نزول الوحي توقعت أن يفتح باب غرفته. وإن فتح باب غرفته أحبس أنفاسي وحتى ابتعاد صوت خطا قدميه الحاد والقاطع من أمام باب غرفتي لم أكن أهدأ. كان سريري سرير الشيطان وتنتظرني أحداث غير سارة. لذلك كان علي أن أصب تركيزي على العمل لأتنبأ مسبقًا بصدور أمر قتلي من وراء عدة أصوات محددة. كنت مثل المحكوم عليه بالموت قطعًا، لكنه لم يكن يعرف في أي ساعة أو يوم. كل صوت مفتاح يدور في القفل، كل صوت قدم يقترب، كل دقة على الباب يمكن أن تكون علامة نهاية الأمر. موت مفجع أحيانًا يجعل الأمل قابلًا للتحمل: «سلمت له الغرفة مؤقتًا وقد تكون المهلة التي أعطاها له إريك فرانسوا شميت وصلت إلى نهايتها في هذه الأيام». ولكن إلى ذلك الحين كان علي أن أعيش في استعداد مستمر، وكان علي أن أفهم ما علاقة تلك القلادة المعلقة على صدره – والتي تشبه قلادة الجنود – بمهمته الإلهية. كان علي أن أفهم ما علاقتي بالهجوم على السيد ورعنا، وما صلة كل هذه الأمور بشخص مجهول اسمه مهدي.
وبما أن فريدون، صديقه المقرب، قد عاد، كان علي أن أترصد فرصة لأجره إلى المطبخ بعيدًا عن عيني بروفت. وربما بكشف جزء من هذا اللغز قد أستعيد هدوء الليالي الضائع.
كان علي أن أنام سريعًا. مضت عدة أيام كنت منهكًا جدًّا فيها لعدم خلودي إلى النوم. تمددت تحت اللحاف. إلا أن فريدون كان يبدو كأنه يمرر المسن الكهربائي على لحم وجهي. وكلما أطفأه للحظة كان يأتي صوت نشر منشار بنديكت من الأسفل، مثل أداة ضرب أوركسترا مؤذية للأذن تتابع لحن التعذيب. لم يكن هناك سوء حظ أكثر من ذلك فنهاري وليلي كانا سواء.
في الساعة السادسة حين بدأ النعاس يغلبني شيئًا فشيئًا أيقظني صوت إريك فرانسوا شميت: «لا، غابيك! ليس هنا!». ثم أتى دور القمريين الذين كرروا نغمتهم المشؤومة كثيرًا بإيقاع «آم آ.. م، آم آم، آم آم» لدرجة أنني في النهاية تذكرت اليوم الذي ازدحمت فيه

أحياؤنا بالناس بقبضـــاتهم وبينما كانوا يصـــيحون بنفس الإيقاع: يجب أن يعدم!» جروا الرجل الذي كان يجلس قبالتنا من قبو بيته لكي...
حين علا صـوت نشـر منشـار بنديكت تأكدت أن تلك القبضـات طارت من الطرف الآخر للمحيط إلى هنا لتعاقب رجلًا كان سـريره سرير الشيطان.
وبينما كنت أضغط بالوسادة على رأسي بقوة كنت أغبط السيد. كنت أرى أن رعنا محقة لأنها فضلته علي. صحيح أن بروفت وضع سكينه على عنقه لكنه لم يكن يعاني من سوء الحظ الذي كنت أعاني منه فحسب بل وكان وضعه قد تحسن كثيرًا عما كان عليه. لم يكن فقط غير مضـــطر إلى مغازلة رعنا في الخفاء بل وكان يعيش مثل الخليفة المقتدر بالله. في الليل كانت زوجته أناييس تهتم به وفي الصـباح حين تذهب أناييس إلى دوامها، كانت رعنا عنده. وبدلًا من صـوت منشـار بنديكت وصـياح «يجب أن يعدم» لطيور القمري، كان يسمع كل يوم في البداية صـوت بوق مايلز ديفيس. ثم تتسـلل يد ناعمة في خصـلات شـعره. وحين يفتح عينيه تنسـاب ضفيرة طويلة عطرة على خده ثم تداعب أسنان ناعمة طرف أذنه بهدوء: «قهوتك جاهزة!».
«صوت نشر».
- آخ يا بنديكت، على الأقل صلي الأشياء التي تقطعينها ببعضها ليصدر صوت مسامير ومطرقة قليلًا.
«صوت نشر».
حين علا صـوت المسن الكهربائي مرة أخرى نهضـت من السرير بسرعة. فتحت الباب وبين عاصـفة من الغبار الأبيض الذي كان يغطي الممر شـققت طريقي من بين الأخشـاب وألواح بنديكت ودخلت إلى المطبخ. رفعت سماعة الهاتف واتصـلت بإينغريد. لحسن الحظ لم تكن في البيت مما سمح لي أن أترك رسالة على جهاز تسجيل
الرســـائل من دون أن أقع في مشـــكلة: «أعرف المعاناة التي مر بها برنارد ليهيئ هذه الفرصـــة، لكنني قررت العودة. أتمنى أن تسامحيني!».
١٠
لأول مرة أرى أن فاوست مورناو وصديقه الذي كان إلى جانبه قد اختفيا. خفت؛ هل يكونا قد أصدرا حكمهما؟ صرخت باضطراب: «ماذا كان علي أن أفعل؟ ذلك اللعين احتل مكاني. لو كنتم مكاني أما كنتم تركلوه دائمًا؟».
- أتسمي ذلك ركلًا؟
- أردت أن أتخلص من شره.
- لقد تخلصت من شره في النهاية!
- لم أصدق. لم أعد أعرف أي واحد منهم أنا.
- ولكنك كنت ترى انعكاسك.
- لم أره إلى ذلك الحد حتى لم أعد أعرفه. إن كان ذلك قصدك...
نقر بأنامله على جبهتي: «لو لم تكونوا تبطنوا شرًا لما ذهبتم إلى تلك الغرف تحت السقيفة!».
بموت الضابط السابق أصبحت خاتون تأكل من رزق ابنتها الكبرى. كان الضابط السابق الذي لا يؤمن بالخرافات قد قرر أن يمنحها أولادًا كثر لكي يذهب عنها الشعور بالوحدة. كان الطفل الأول فتاة والطفل الثاني صبيًا أما الطفل الثالث فكان فتاة أيضًا، أما الطفل الرابع فولد ميتًا والطفل الخامس أصيب بالحصبة بعد سنة من ولادته ومات، وحين كان ابنها السادس في الثالثة من العمر لا أكثر دهسته سيارة فتذكر الضابط السابق بكاء الخال على فراش الموت وتزلزل من الداخل شيئًا فشيئًا.
«كانت هناك شـجرة تين وسـط الباحة. في الليل كنت أدخن في عتمة الغرفة وأحدق بنقطة وهمية بين أغصـان التين. عندما رأت خاتون تبدل حالي. كانت تعض على الوسادة في ظلام الغرفة لكي لا أسمع صوت بكائها».
حين تزوجت الابنة الصـغرى أضـيف صـهر جديد إلى عائلة خاتون. وبعد سـنتين أصـبح للابن عمل ومورد وتزوج، وبولادة حفيدة ازدهرت مجددًا شجرة عائلة خاتون التي كادت أن تجف. والآن أصبح باستطاعتها أن تذهب إلى بيت العروس أو العريس بالإضافة إلى ابنتها الكبرى وتلعب مع حفيدتها الصغيرة وتنسى إحساس الوحدة إلى الأبد. وبعد بضع سنوات توفي الضابط السابق بصمت تام وماتت معه أسـطورة خاتون التي رافقتها منذ طفولتها ولم يكن لها أسـاس من الصـحة. ولكن في هذه الأثناء كانت أوضـاع البلاد تعصف. والتحقت ابنتها الكبرى بجموع الناس الذين كانوا يصيحون ويرفعون قبضاتهم في الهواء.
بعد عدة أشـهر ماتت ابنتها الكبرى في سـبيل إسـقاط نظام الشـاه، واضـطرت خاتون التي تنقلت من بيت إلى بيت طوال حياتها مرة أخرى إلى أن تحزم أمتعتها وتذهب إلى منزل ابنها.
بعد ثلاث سنوات مات ابنها أيضًا في سبيل إسقاط النظام الذي جاءت به أخته الكبرى. عندها كانت خاتون في باريس، وفي منزلي! وأنا الذي كنت أؤمن بالخرافات إيمانًا كاملًا رأيت نفســـي واقفًا فجأة قرب نهاية دائرة مغلقة وكنت قد فهمت للتو الفكاهة المرة في مقدمة رسالة الضابط السابق في الصفحة الأولى للمذكرة مكتوبة بخط مكسر: «إهداء إلى السيد يد الله جول. أطال الله عمره!».
سألته محتارًا: «ألا تؤمن بالقدر وهذه الأشياء؟».
فأجابني فاوست مورناو بلهجة آمرة: «لا تسأل!».
ماذا كان علي أن أقول؟ كانت زوجتي تعض على الوســـادة الغارقة في الدموع طوال الليل، وفي الصـــباح تضـــع اللقمة في فمها بصـــعوبة ثم تتمدد مجددًا على الأريكة طوال اليوم محدقة بأزهار إبرة الراعي الذابلة إلى جانب النافذة. كانت هناك فكرة تدور في

رأسها مثل حشرة محبوسة: «قدمها قدم نحس! بمجرد أن وطأت بقدمها منزلنا فإننا أصبحنا نسير خلف التابوت دائمًا». بعد ذلك وكأنها تريد إبعاد الحشرة المزعجة تلوح بيدها في الهواء، وبعد لحظة تبدو كأن الحشرة المحبوسة تخبط بقدمها على جدار جمجمتها.
كانت خاتون تجلس طوال اليوم في زاوية الغرفة وتمسح على خيوط طرف السجادة. كانت تتناول شعرة رفيعة صوفية وكأنها كانت تحاول إصلاح جميع التجاعيد والعقد والتكسرات في حياتها، ثم تمررها بصبر غير طبيعي بين أظافر أصابع الإبهام والسبابة المضغوطة، وفي النهاية حين تتجعد وتعقد أكثر من السابق ترميها
بعيدًا. وكانت تلقي نظرة إلى خدود الفتاة المبتلتين وتتأوه، ثم ترفع شعرها الأبيض عن جبهتها وخدودها وتدخلها في العباءة ثم تتناول خيطًا آخر.
عندما كنت آتي إلى البيت كنت أفتح الباب بصعوبة، وبمجرد دخولي كان الجو المضغوط الحزين الذي تراكم مع الوقت في هذا البيت يجعلني أتقوقع على نفسي، وبعد لحظة كنت أنا أيضًا أصبح جثة على سرير غرفة أخرى في هذا البيت الذي يبدو وكأنه لا يمكن للحياة أن تستمر فيه إلا بشكل أفقي.
قلت له: «أنت تعرف أنها كانت شقة صغيرة لم يكن فيها إلا غرفتان. كانت زوجتي وابنتي تنامان في إحداها وفي الأخرى خاتون. وأنا الذي كنت أرى ظل الموت ورائي كنت أدخن السجائر في عتمة الغرفة من الصباح حتى المساء وأحيانًا، إن كان الأمر ممكنًا كنت أمشي. رأيت أنهما لا تستطيعان النوم. وفي إحدى الليالي أمسكت رأسي بعجز. بكت خاتون: «لقد ضيقت عليك. أدعو الله من الصباح إلى المساء أن أموت».
«منذ ذلك الحين وأنا أخرج ليلًا من البيت أمشي حتى الصباح؛ وإن كان السيد موجودًا كنت ألعب معه الشطرنج. في إحدى الليالي حينما كانت زوجتي مصابة برعشة صرخت: «لدي أم واحدة في هذه الدنيا، ألا يمكنك أن تتحملها؟».
«ما الذي كنت استطيع قوله؟ كل واحد في هذه الدنيا لديه أم واحدة، بالإضافة إلى أنني لم يكن لدي واحدة حتى. ما الذي كنت استطيع قوله؟ أكثر ما كنت أستطيع فعله هو التحديق بنقطة مظلمة بين أغصان التين بحالة تشبه التي كانت في السنوات الأخيرة للضابط السابق. لكنني هنا لم أكن أملك باحة أو شجرة تين. لذلك كنت أحدق بنقطة مظلمة بين رقع الشطرنج. وحين استمر غيابي ليلًا كسرت زوجتي كل ما كان موجودًا من كؤوس وصحون؛ ثم حين هدأت مسحت دموعها: «أريد الطلاق. لا أستطيع تحمل الخيانة!». لم أستطع إيجاد ذريعة أفضل لغيابي ليلًا إلا الخيانة. لم أجد حلًا أفضل من الطلاق من أجل القفز من دائرة الموت. فقلت لها لنفعل؛ وفعلنا ذلك. وبذهابي إلى تلك العلية كنت قد قفزت من دائرة الموت تلك بأعجوبة. وتسألونني لماذا رحلت؟».
- حين كانت تتحول غرف العلية إلى مكان قتلك كان يمكنك العودة إلى زوجتك».
- كانت زوجتي في ذلك الوقت قد ماتت!
- كانت خاتون موجودة! لكنك بدلًا من ذلك أخليت المكان وأخذتها إلى مأوى العجزة.
- أردت أن تصرف الدولة عليها ليقطع ذلك الخيط الأخير الذي يربطنا ببعض.
- مسكينة خاتون! في هذه الحالة كانت قدمك بالنسبة لهما قدم نحس.
- حسنًا، أجل... كانت زوجتي قد قالت ذلك. ظنت أنني كنت نائمًا. لكنني سمعتها بأذني.
- إن كنت حقًا تفكر بهذه الطريقة فلماذا كنت تذهب لزيارة خاتون مرة كل أسبوع.
كانت خاتون المرأة الأكثر حنانًا في الدنيا. كانت طوال الأسبوع تضع الفاكهة التي يعطونها إياها للتحلية جانبًا لكي يكون عندها ما تضيفني إياه حين أذهب لزيارتها. كان خوفها من أكثر المخاوف المفهومة في الدنيا: الخوف من البقاء وحيدة. فمنذ أن أتت إلى باريس بذلت قصارى جهدها لتحاول أن تفهمني من دون أن تقول إن وجودها ليس بلا فائدة. فحين كنت آتي إلى المأوى كانت تضيفني وكأنها فتاة في الرابعة عشرة تضيف حبيبها. وحين كنت أنهض لأغادر وترى نظرتي المضطربة التي تتنقل من طرف إلى آخر في تلك الشقة الصغيرة الفوضوية كانت تنظر إلي بهدوء قائلة: «أتبحث عن مفاتيحك؟». ثم تشير إلى طرف الوسادة أو تحت الأريكة أو مكان مخفي آخر وتبتسم ابتسامة النصر وتقول: «إنها هنا!».
قلت: «حسنًا، تلك المرأة العجوز المسكينة... وحدها»...
سقطت مجموعة من الأوراق بصمت تحت دائرة الضوء، ثم ظهر بعدها فاوست مورناو. يبدو كأن ذلك الضوء كان سبب ظهورهما فلو لم يقفا تحته لما استطعت رؤيتهما.
تناول فوست مورناو مجموعة الأوراق: «إن كنا سنتقدم على هذا النحو فإني أظن أنك في النهاية ستفكر بطريقة ما لتجهز سجادة كاشانية، بعض علب الكافيار، أو على الأقل عدة كيلوات من الفستق الممتاز كيفما اتفق وتنهي المسألة حسب تصورك. وكأنك لا تؤمن بشيء على الإطلاق!».
كان يقول الحقيقة. خطر ببالي عدة مرات أن أقدم شيئًا لأخلص رقبتي. كنت أنتظر علامة لم يظهراها بعد. حككت طرف أنفي: «في الحقيقة حتى الآن لا أستطيع أن أصدق أن هناك العديد من المنفيين مصابون بالرهاب».
نظر فاوست مورناو إلى جانبه. خشيت أن يتناول الهندي الأحمر الملاصق له، والذي كان واقفًا خارج نطاق سبب الظهور شيئًا ثقيلًا ليكسره على رأسي حتى أصدق. وضعت يدي على وجهي بسرعة لأحميه: «عن ماذا علي أن أتحدث؟».
هز فاوست مورناو حزمة الأوراق في الهواء: «يجب أن تعرف هذه الكتابات. أحضر أحد أصدقائك الأوراق من محل عمله، وفي أعلى كل صفحة هناك علامة توشيبا التجارية».
- أجل، لقد كان يثير أعصابي حين كنت أكتبها. يجب أن تكون الأوراق بيضاء بالكامل.

- هل هذه الحكاية حقيقة أم أنك كتبتها في كتابك؟
كنت قد كتبت كتاب «التناغم الليلي لحفل أوركسترا الأخشاب» منذ سنوات عدة، قبل أن تقع هذه الأحداث كلها بزمن طويل. إنها قصة خيالي تمامًا. في ذلك الوقت لم أكن أعرف أحدًا من الشخصيات. حتى السيد ورعنا. ثم أصبحت حياتي تشبه هذا الكتاب. وبعد هجوم بروفت لم أعد أذهب إلى عملي ونتيجة لذلك لم تعد لدي أصباغ؛ كنت أقول أنني أرسم ولكن في الحقيقة كنت أعيد كتابة هذا الكتاب ليلًا لسببين: الأول أنني كنت أحاول أن أغير المصير الذي ينتظرني بتغير الأحداث (محاولة باءت بالفشل لأنني أدركت سريعًا أنه إما علي أن أتلف الكتاب أو أضيع حياتي). والثاني أن رعنا والسيد علما بأمر الكتاب بطريقة ما وكلما رأياني كانا من ناحية يحاولان معرفة ما كتبت، ومن ناحية أخرى كانا يحاولان بطريقة غير مباشرة تبرير أو تحريف الأحداث السابقة لأعيد النظر في حكمي. حسنًا كما تعلمون على الكاتب أن يشفق على أبطاله. فكنت أعدل أو أغير الأحداث، وخاصة أن حالتهما كانت تضعني في موقف سار: كنت أرى أن الخوف من الأدب أقوى من الخوف من يوم الحساب.
قلت له: «تلك الأوراق التي عليها علامة شركة توشيبا هي الرواية غير المحرفة للأحداث».
رفعت يدان كبيرتان وقويتان كتفي وسحبت السكين من ظهري: «ولكن ليس كل الأحداث!».
هز فاوست مورناو رأسه وكأنه كان ينتظر سماع الإجابة عن الأمر الذي طرحه الهندي الأحمر الملاصق له. ورغم أنني لم أكن أشعر بألم بما أن السكين سحبت من ظهري كنت أشعر بالارتياح. فقلت له شاكرًا: «اسمع، لقد ارتكبت خطأ واحدًا في حياتي لكنني الآن نادم كالكلب».
- لا تغير الموضوع.
- ولكن، أليس من الشقاء ألا يطبع أحد كتابي وأنا حي، والآن يجب أن أحاسب على هذا وذاك؟
رمى فاوست مورناو حزمة الأوراق على الأرض: «أنت أردت ذلك! نحن سنعيدك من دون نقاش!».
١١
ارتشف السيد من فنجان قهوته: «كيف الأوضاع؟».
كانت أوضاع الطابق تشبه أوضاع البلاد بعد الثورة. وصل فريق كلانتر إلى السلطة، وأصبح السيد هاربًا وأنا مثل الآمر المعزول أقبع في البيت.
بعد أن انتهى فريدون من دهان الغرفة وبناء نصف الطابق الخشبي اقترح على بنديكت التي كانت قد ألحقت البناء بنجارتها أن يساعدها فقبلت بنديكت التي كانت تنتظر ذلك كهبة من الله. كان فريدون في الثلاثين من عمره، وبنديكت في السابعة والأربعين. وكنت أعلم بعاقبة هذا النوع من العلاقات مع الجنس الآخر. وحين رأيت فريدون مشغولًا بالبناء في غرفة بنديكت تأوهت متذمرًا من مصيبة جديدة في الطريق.
طوال اليوم كانت أوركسترا المنشار الكهربائي، المنشار اليدوي، المسن الكهربائي والمسامير والمطرقة مشغولة بالعمل من أجل بناء حياة أفضل؛ وفي بعض الأحيان كان يضاف إلى هذه الآلات التي تطرق وتدور صوت استمتاع أمانويل بأوبرا كارمن وصوت أنين زوجة كلانتر المؤلم وصوت أذكار علي الحزينة. فقلت: «لقد هدأت الأوضاع ثانية، لكن»...
- ولكن ماذا؟
كنت أتوق إلى لعبة شطرنج. ولكن جميع تلك المحاولات لإظهار هدوء الأوضاع ذهبت أدراج الريح بتلك الكلمة التي خرجت من فمي في النهاية. قلت:«مؤخرًا أصبحت المكالمات عجيبة غريبة».
- كيف ذلك؟
- اتصل أحدهم من أمريكا وسأل عن مهدي.
تراجع السيد مندهشًا: «أصبحت الأوضاع غريبة!».
فقلت: «لم أكن أعرف أن لك اسمًا مستعارًا أيضًا!».
انصعق بشدة وكأنه أصبح في موضع اتهام صعب: «لا أفهم قصدك».
- لا تقلق. فقط حركت حصاني حركة بسيطة. مثلك حين تحرك في بعض الأحيان حصانك ثلاثة في ثلاثة أو اثنين في أربعة بدلًا عن ثلاثة في اثنين».
- ولكني حركت حصاني مرة واحدة بشكل خاطئ.
- إذًا دعني أحرك فيلي بشكل ملتوٍ قليلًا.
- بالطريقة التي تهاجم فيها عليك أن تسلم اللعبة من الآن.
- تحدثت بالأمس مع فريدون!
- هل عاد؟
- منذ يومين.
- ماذا بعد؟
- جررته إلى المطبخ بصمت.
- وهل اتضح في النهاية من هو مهدي؟
- أتذكر تقي؟

ذلك الذي...
- أجل ذلك الذي سلمني غرفته وذهب إلى أمريكا.
- أتعرف أنه...
- مات؟
- قتل في الاشتباكات.
- لكنه كان قد ذهب إلى أمريكا!
- كلا. لقد أراد أن يخفي أثره.
- هل أنت متأكد؟
- علي قال ذلك.
- أتعرف أن اسمه المستعار كان مهدي؟
- من أين تعرف؟
- لقد قال لي ذلك الشخص الذي اتصل من أمريكا.
تراجع السيد إلى الوراء: «كل هذه الألاعيب يجب أن تكون من تدبير كلانتر».
- لا أظن ذلك.
- لا بأس، ما علاقة ذلك بقضية بروفت؟
- في الظاهر لا شيء. مجرد تشابه في الأسماء، ومصادفة محضة. وتوافق زمني في غير محله لحادثتين غير مترابطتين. ولكن يبدو كأن هناك يدًا غامضة في الموضوع تقودني إلى حافة الجنون بتهيئة هذه الأحداث.
وضع نادل مقهى «الفنارات» القهوة على الطاولة وباعد شفتيه الرفيعتين بضحكة شيطانية. وضعت قطعة السكر في الفنجان وبدأت بتحريك القهوة: «على هذه الحال أظنني في النهاية حللت القضايا».
- كيف ذلك؟
- مهدي هو نفسه فريدون!
- هل قال ذلك بنفسه؟
- قال ذلك بنفسه.
- أين كان مختفيًا؟
- لقد فر من مراده.
- لم أر مريدًا يفر من مراده! إلى أين ذهب؟
- لقد ذهب إلى هولندا.
جرع السيد قهوته: «لماذا إلى هولندا؟».
- قال أن بروفت كان يتوقع منه أشياء لم يستطع أن يلبيها.
- أي توقعات؟
- لم يقل.
- إذًا في تلك الليلة التي كان يصرخ فيها بروفت «أنا لست شاذًا...».
- كانت مسألة أخرى.
- أو يكون قد ظن أننا اغتبناه؟
- ذهبت ليلة أمس للمرة الثانية إلى غرفة بروفت!
- إذًا؟
- قلت له أنني أريد أن يعود الهدوء لهذا الطابق. هل تزعجك ضجتي؟ فقال لا. فقط هناك شريط جنسي يزعجني صوته.
- أي شريط؟ أنت لا تملك تلفاز حتى يكون عندك فيديو.
- ليس الأمر من دون سبب، فالبعض يفضلون الراديو على التلفاز. حين يستمع الإنسان إلى الصوت فقط فلا توجد حدود تحد خياله.
وضع السيد فنجان قهوته الفارغ على الطاولة واستند إلى الوراء وكأنه كشف سر القضية: «من المؤكد أن ضجيج رعنا كان يزعجه! ولاسيما بضحكاتها العالية و...».
- اعترف أنه كان يسمع كل شيء. كان يقول: «لا أسمع فهذا حرام. لكن الجدران رقيقة».
- حسنًا، ما علاقة ذلك بمهدي؟
- افترض أن شخصًا أتى إلينا وصدفة كان نوع صوته وأسلوب كلامه يشبه ذلك المريد الذي هرب من مراده...
تقدم السيد إلى الأمام: «هل قال شيئًا؟».
- قال أنه كان يسمع صوت فريدون من داخل الغرفة!».
- إذًا، فلماذا وضع السكين على عنقي؟

صـمت؛ لا شـك في أن الأمور اختلطت على بروفت وكانت محاولاتنا الانتحارية تسـتطيع كشـف مصـادر تخيلاته الأولى فقط لا منطقه.
أخرج السيد عملتين نقديتين من فئة العشرة فرنكات من جيبه ووضعهما على الطاولة: «اسمع مني، أنت أيضًا جد لنفسك مكانًا آخر. لقد جن تمامًا!».
حدقت به. ارتجف عرق رفيع تحت جفنه الأيسـر. تقدم نادل مقهى «الفنارات» الذي كان واقفًا في الزاوية وتناول النقود وابتسـم للسيد.
- كان فريدون يقول إن كنت تريد مساعدته قل: أنا ما زلت على طريقه.
ابتسم السيد مستهزئًا: «الآن أصبح اثنين!».
نهضت، وبينما كنت أرتدي معطفي المطري قلت له: «لقد حصل اليوم أمر إما أن يساعده في تحسين حاله أو عليه أن ينتظر وقوع مصائب جديدة».
- ما الذي حصل؟
- حين رأى بروفت أن هناك شـيئًا يحصـل بين فريدون وبنديكت، أخذ أداة المصـقلة من مريده وأرسـله وراء أمر تافه. ومن اليوم صار بروفت هو من يساعد بنديكت!
١٢
بعد تجسـس غابيك الأولي جاء دور ماتيلد لتتابع نفس الأسـئلة والأجوبة المعتادة. عندما سـألت ماذا أريد كذبت عليها: «أتيت لأدفع الإيجار»، في حين أنني كنت قد أعطيت الإيجار منذ بضعة أيام.
كانت زوجة صـاحب العمارة مشـتتة التركيز وحتى إريك فرانسـوا شـميت العجوز ذاته كان عليه أن يقلب دفتر حسـاباته رأسًـا على عقب كل مرة لسـاعات ليجد وصـل قبض الإيجار الذي كان يكتبه مسـبقًا. إن قول شـيء كهذا في هذه الظروف قد يعني دفع إيجار الشهر نفسه مرة أخرى ولكن لم يكن هناك مفر. وبسبب ذلك الجو المرعب والمخيف الذي خلق منذ ليلة هجوم بروفت لم أستطع أن أفصح عن سبب مجيئي في الممر، خاصة وأن في اليوم التالي للقائنا أبقى بروفت شق الباب مفتوحًا بالإضافة إلى أن تصميم البناء كان يمكّن أي شخص من التنصت على حديث شخص آخر يقف على الدرج.
كررت ماتيلد أسـئلتها المعتادة وفي النهاية سـمحت لي أن أدخل إلى غرفة الضـيوف. أتى إلي غابيك مرة أخرى بعد أن خلص نفسـه من زوجة صاحب البيت وأخذ يتابع حركاته المحرضة. كلا، لا يصح الأمر هكذا. علي أن أكسب وده بالتملق والمداعبة، ولكن حين أردت مناداته شككت في الأمر: «ما اسمه هو الآخر؟».
- غابيك.
- ولكن في المرة السابقة كان اسمه إرو.
- لقد نفق إرو.
- كما نفق غابيك قبل ذلك أيضًا!
- أجل. هذا ولف.
يقال إن النسيان دفاع الجسد الطبيعي ضد الألم. ويقال إن الألم الذي يتحمله الوليد أثناء عبوره من خلال الفتحة الضيقة شديد لدرجة أن الطفل يفضل نسيان ألم الولادة إلى الأبد. وأنا الذي أتيت في النهاية لأخلص نفسي من الشر الذي فرض علي بدخول بروفت كان علي الآن أن أركز جيدًا إلى حين مجيء إريك فرانسوا شميت لكي لا تقع عيناي على أنفه الغريب وأنسى سبب مجيئي. كنت أفكر في اليوم الذي قرر فيه جسد ماتيلد أن يمحو مباشرة أي شيء يصل إلى القسم الرمادي من دماغها. لا أن يصبح المستقبل وهمًا ولا الماضي ذكرى. فقط أن تبقى قدرة اللحظة في السراء أو الضراء. لا فرق إن كان ذلك الكلب غابيك أو بوبي. لا فرق إن كنت دفعت إيجار البيت أو أن هذه هي المرة الثانية التي أدفعه فيها، لدرجة ألا أجد رابطة قريبة بين الحوادث المتباعدة، لدرجة أن أكتشـف رابطة قريبة بين المقاصـد البعيدة. وإنما لأنسـى أن بنديكت كانت تنشـر بالأمس، لكي أنسـى أن بنديكت كانت تنشـر منذ دقيقة، لكي أفكر أنها تناولت المنشار الآن. الآن فقط، وحتى بعد دقيقة أخرى من الآن.
ما من تعذيب يمكن تحمله للحظة واحدة. إن كانت هناك قدرة في هذه اللحظة فقط، إن كانت موجودة «الآن»، إن كانت موجودة «فقط الآن» لم دفنت الأسـرار في أعماق التراب. إن كانت موجودة «فقط الآن» وليس فيما بعد. أن لا يكون أحد جلاد الآخر. إن كانت موجودًاة «فقط الآن» وليس فيما بعد لما كانت بنديكت التي تنشـر طوال اليوم بلا توقف هي بنديكت نفسـها. وحتى وإن قالت إنها بنديكت لما كانت بنديكت نفسها بعد لحظة.
هذا «الماضـي» الذي يتسلل ليلًا تحت شرشفك. حين تستدير تراه أمامك. حين تغوص برأسك في الوسادة تراه وسط الوسادة. مثل الظل، لا بل أسوأ من ذلك. حين يختفي الظل يختفي النور أيضًـا. أما «الماضـي» فهو معك في الصـمت والظلام. أنا لا أستطيع أن أعد عدم وجودي، ولا يحق لي وأنا الذي دققت مسامير القدرة الأربعة الحارقة أن أعطف على ماتيلد. وأنا الذي ترتجف جذوري في الريح أعطي الحق لهذه المرأة ألا تتذكر أنه في ذلك اليوم الضبابي الممطر من نيسان سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين حين التفت إليها زوجها السابق برفقة مجموعة أخرى وقد فرقوهم وأرادوا أخذهم: «حين تهب الريح أغلقي النافذة. لأنني سأشعر

بالبرد». غطت المرأة وجهها المبتل بيدها بينما كانت ترفع رأسها لترى أن هناك قطعة لحم حية تقفز إلى الأعلى والأسفل فوق الثلج. وبعد أن تنظر إلى زوجها مستغربة ترى أن الضابط وضع البندقية على صدغه: «كرر!» ويفتح الرجل فمه ويصرخ مثل حوت وينفر الدم من فمه ويصل كالنافورة إلى قدمي ماتيلد. أعطيها كل الحق. أعطيها كل الحق.

دخل إريك فرانسوا شميت العجوز ممسكًا دفترًا بيده إلى غرفة الضيوف.

١٣

كان كل شخص لديه أحلام للمستقبل إلا أنا. إن كان حلم إريك فرانسوا شميت تثبيت العدالة في محيط هذا المبنى المؤلف من ست طوابق فإن حلم كلانتر تثبيت العدالة في الطابق السادس من هذا البناء.

إن كان حلم السيد هو أن يستولي على جميع غرف هذا الطابق، وبإزالة الجدران بينها يزيد مساحة فنائه فإن حلم فريدون هو أن يضاعف فائدة الغرف للسكان ببناء نصف الطابق الخشبي.

إن كان حلم بروفت هو أن يكون عنده يومًا ما حواريٌّ في كل غرفة من الإثني عشر غرفة في هذا الطابق فأنا لم يكن عندي حلم أبدًا. رأيت الآن أن الشيء الذي كنت أفر منه ظهر أمامي. كان هناك ما يغريني شيئًا فشيئًا لأقوم بدور يهودا من أجل بروفت.

على الرغم من أن السيد فقد تلك الغرفتين مؤقتًا ولم يعد يذهب إليهما خوفًا من بروفت، إلا نادرًا – فقط حين كان متأكدًا من وجودي – إلا أنه لم يتخل عن حلمه قط. لم يكن السيد من الناس الذين يسعون وراء الأمور الصغيرة وكان الآن يحضر المقدمات ليسحب السجادة من تحت قدمي كلانتر وفريدون وبروفت فجأة.

كما أن بروفت كان يتقدم بسرعة على درب أحلامه. ليس فقط استطاع أن يعيد مريده المتمرد فريدون وإنما أضاف بنديكت وكلانتر إلى مجموعة مريديه.

كلانتر، الذي كان يروح ويجيء بصمت أصبح الآن منتشيًا بهزيمة وانكسار عدوه الطبقي، السيد، وحين كان يعود من الخارج كان يخبط بقدميه بشدة على الدرج؛ وما أن يصل إلى الطابق السادس كان يتثاقل في مشيته ليسمع جدران الممر بوجود سيادته.

بعد أن صنع فريدون نصف الطابق الخشبي لنفسه ولبنديكت أخذ يزيد المساحة المفيدة لغرفة كلانتر. طوال اليوم كان صوت المنشار الكهربائي والمسن يجعلان أبواب وجدران البناية في حالة اهتزاز تصمّ الآذان. ومع كل مرة يفتح ويغلق فيها الباب كانت كومة نشارة الخشب والغبار التي تجمعت وراء الباب تنجرف إلى الداخل مثل جبل من الرمال المتحركة، وتخفي سجادتي وسريري وكتبي تحت طبقة صفراء ضخمة.

وبمجيء خاتون إلى باريس لم أعد أنام ليلًا؛ كما أن صدري كان يئز من كثرة تدخين السجائر الدائم. والآن ومع كل سعلة كانت تخرج كمية من نشارة الخشب من رئتي، ومهما كنت أواسي نفسي بأن هذا الوضع مؤقت لم يكن ذلك يجدي نفعًا. صحيح أنني رفضت لطف فريدون وصرفت النظر عن بناء نصف الطابق الخشبي، وصحيح أن بغياب السيد انتفى موضوع بناء نصف طابق له، ولكن مهما حسبت كنت ما أزال أجد أنه ما يزال هناك شهران لإتمام عمل السطح المفيد للغرف الباقية. والأسوأ من ذلك إن كانت هناك نهاية يمكن تخيلها لهذا الغبار وأصوات النشاز فلسوء الحظ أنه قد بدأ للتو ولم تكن هناك نهاية على الإطلاق. ومع كل دحرجة لفريدون أو بنديكت على هذا الطابق النصفي كانت الأخشاب العتيقة (التي تعود لشركة الغاز وكانا ينهبانه ليلًا من الحارة انتقامًا على سرقة نفط البلاد) تئن بصوت جاف يفسد صمت ليل هذه المجرة المجنونة. وكانت حفلة أمسية أوركسترا الأخشاب تنتهي بأداء أبدي. كان فريدون يستيقظ على صوت ارتطام سرير جان جوريس بالجدار أو أي ضجة صغيرة مني ويتدحرج على نصف الطابق الخشبي. ومع كل دحرجة كان الخشب يئن وتستيقظ بنديكت. كما أن سؤال وجواب الخشب في غرفة فريدون وبنديكت دفع بعض الأشخاص إلى فتح أبواب غرفهم والذهاب إلى الحمام. ومع ارتفاع صوت ضجيج فتح وإغلاق الأبواب والذهاب والإياب في الممر وأزيز كرسيّ وارتطام سرير بروفت بالجدار كانت أخشاب غرفة بنديكت وفريدون تئن مرة أخرى.

كنت أستلقي طوال اليوم على سريري أستمع إلى الضجيج في الخارج مثل سجين محكوم عليه بالموت يسمع صوت نصب مشنقته الخشبية. لم أكن أستطيع النوم أو الخروج لأنني كنت منهكًا من عدم النوم الدائم، ولم أكن أستطيع النوم. بعد صرخات إريك فرانسوا شميت الغاضبة الذي كان يجلد غابيك جاء دور طيور القمري «يجب أن يعدم» ثم صوت منشار فريدون الكهربائي. قرابة الساعة العاشرة حل الصمت لمدة وكنت قد غبت عن الوعي، ولكن بعد ساعة أيقظني صوت طرقات قوية على الباب. سألت فزعًا: «من بالباب». أجابني صوت رجولي ثخين بالفرنسية لم أفهم منه شيئًا. كنت متأكدًا أنها الشرطة. فتحت الباب. كان هناك رجلان طويلان بمظهر أنيق يقفان أمام الباب. كان أحدهما يمسك كراسًا عليه صورة اليسوع واقفًا بين حملين وقد اختفت بقية أجسادهم بين ثنايا معطف الرجل. وتحت إبط الآخر بعض الكتب. شقا لنفسيهما طريقًا وتقدما إلى الأمام. بمجرد أن فهمت أنهما «شاهدا اليهوه» جاءا ليرشداني حاولت إغلاق الباب، فضغطت أربعة أيد قوية الباب كدوران مسننات الناعورة. دفعت الباب فزعًا مثل شخص التجأ إلى مكان خوفًا من البقر الوحشي. وبينما كنت أشير إلى غرفة بروفت برأسي كنت أصيح: «اليسوع كريست هناك! اليسوع كريست هناك!».

حين ابتعد صوت الخطى من أمام بابي رميت نفسي على السرير بحالة عصبية وغطيت وجهي باللحاف. بعد لحظة كانوا يطرقون باب بروفت. أصخت السمع بإمعان. بعد ذلك العذاب جاء دور التسلية!

لسوء الحظ لم يفتح بروفت الباب. جاء صوت نزول «شاهدي اليهوه» على الدرج. وقعت عيناي للتو على رسالة تحت باب غرفتي. فتحت المغلف.

«سينسى هذا الجرح أيضًا. ولكن علي القول أنني أهنت بشدة وأشعر أنه تمت خيانتي. لم أظن أنه بعد هذه المطاردة والتوسل أمام هذا وذاك أن تتصرف بهذه الطريقة الصبيانية. إن كنت أريد أن أقول الحقيقة فإن مجموعة تصرفاتك وأفعالك تدل على أنك إنسان مدمر الذات!

أود أن أختم رسالتي بهذا المثل القديم: إلهي احفظني من شر أصحابي فإنني أستطيع تدبر أمر أعدائي».

برنارد.

٩) أداة حادة تشبه المطرقة تستخدم لتقطيع حبات السكر.

١٠) مولوي هو الشاعر والمتصوف الكبير مولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣ م)، صاحب المثنوي المشهور بالفارسية، وصاحب الطريقة المولوية. وكان الشاعر الفارسي شمس الدين تبريزي وصل في عام ١٢٤٤م إلى مدينة قونية حيث يقيم فيها مولوي، باحثا عن شخص يجد فيه خير الصحبة وقد وجد في الرومي ضالته، ولم يفترق الصاحبان منذ لقائهما حتى إن تقاربهما ظل دافعا لحسد الكثيرين على جلال الدين لاستئثاره بمحبة القطب الصوفي التبريزي، وفي عام ١٢٤٨م اغتيل التبريزي ولم يعرف قاتله وبقال إن شمس الدين التبريزي سمع طرقا على الباب وخرج ولم يعد منذ ذلك الحين، فحزن الرومي على موت التبريزي، وحبه العميق له فاض بأشعار و موسيقى و رقصات تحولت إلى ديوان سماه ديوان شمس الدين التبريزى أو الديوان الكبير.

١١) هو لقب في الحوزة العلمية الشيعية يعطى لمن بدأ في حضور دروس السطوح العالية.

الفصل الرابع: حزنًا على بحر ضائع

١

كنت جالسًا على طرف السرير وأتحدث بلا توقف وسط الظلام؛ أتحدث كي لا أخاف مثل شخص في الظلام يضع يده كحاجز في وجه الخطر؛ وكان هذا الخيط الوحيد الذي يربطني بها. تحملتها مثل حمار طوال ستة وعشرين عامًا. كنت أخدع كل حمار يصل. من ممثل السينما إلى بقال المحل. كنت أرتعب من ضوء النهار، من ضياء حد الشمس على مفرق شعري. كنت أخاف أن أغفل فتظهر من تحت أظافر قدمي. حين كنت أنام صباحًا كنت أترك المصباح مضاءً. ليكون إلى جانبي دائمًا على الجدار المقابل. كنت أعلم أن هذه الركلات التي أتلقاها ستنهكني في النهاية؛ والآن مضت أسابيع لم أنم فيها. انقطع نفسي من رائحة البصل المقلي الحادة والمقززة محملة بغبار الكلس وتربة المنشار فضاقت رئتاي.

كانت «م أ ر» وكأنهم استحضروها كالجان، فأتت إلي منذ يومين. كانت الشخص الوحيد القادر على إنقاذي، ولكنني فعلت شيئًا يطردها إلى الأبد: «لماذا أتيت؟ وبعد كل هذه السنوات؟».

- بعد خمس عشرة سنة.
- لا بأس. بعد خمس عشرة سنة.
- كنت أحاول المجيء منذ ست سنوات ولكن كل مرة كانوا يمنعونني.
- لم أسألك لماذا جئت متأخرة.
- أتيت لأراك.
- حسنًا، رأيتني غارقًا بالفضلات، لماذا لا تذهبين؟
- علي أن أهتم بك. أنت تهلك نفسك.
- ما يهلكني شيء آخر.
- يمكن العيش بين الآخرين وحيدًا.
- هؤلاء الآخرون من يعيشون في وحدتي.
- هؤلاء الآخرون جروا وحدتك إلى وسط المعركة.
- هل أتيت لتنصحيني؟
- أتيت لأساعدك.
- الجميع يساعدونني! ينزل على أحدهم الوحي، والآخر يريد مضاعفة المساحة المفيدة لغرفتي. والآخر يشعل شعره بالنار.... إن كنت تريدين مساعدتي فاذهبي، اذهبي ودعيني وشأني!

ذهبت وتركت الباب نصف مفتوح؛ ليتها عادت. يا للغباء! من سيحمل نعشي الآن؟

بعد نصف ساعة عادت بنفس الهدوء الذي ذهبت به، بعد أن شمرت عن أكمامها لترتب وضع الغرف الفوضوية. تناولت سكين المطبخ وصرخت في وجهها بأنها إن لم تغادر فسأقتلها.

يا للغباء! بأي صعوبة وجدتني وأنا أقوم بـ...
- حين وجدتك في النهاية لم أتردد. نمت أمام باب العديد من السفارات لعدة ليال ولم أفقد الأمل من الأجوبة السلبية. لم أكن أهتم أي بلد سيعطيني تأشيرة.
كانت تعرف كل شبر من أوروبا. كانت تعرف أن أوروبا أرض متصلة، وأن هناك سفينة في كل مكان محاط بالماء. سفن كبيرة لدرجة أنها تعتبر أرضًا متحركة بحد ذاتها. حين تذكر قنصل النمسا الليلة التي جلست فيها حافية القدمين على طرف حوض قصر السفير الإيطالي، وأخذت تغني مثل حورية بحر حزنًا على بحر ضائع، وضع الختم الأخضر في إسفنجة الحبر عدة مرات وبدقة بلا تردد على جواز السفر وبالدقة نفسها.
- وكأنه – بمحاولة إلقائي في الماء – أراد التأكد من أنني لن أعلق بين الصخور. ثم تناول بطاقة بيضاء عن الطاولة. وكتب عليها رقم هاتف وناولني إياه مع جواز السفر قائلًا: سأذهب بعد أسبوع إلى فينا لقضاء العطلة. إن حدث طارئ يمكنك الاتصال بي.
انطلقت من النمسا عدة مرات، ولكن في كل مرة كانوا يمنعونها عند الحدود؛ وبقيت هناك عدة سنوات حتى وجدت منفذًا من ذلك الطريق المسدود.
- تزوجت بهانريش؛ لم يكن هناك مفر. كان علي أن أخرج جواز سفر بأية طريقة.
ذهبت إلى إيطاليا مشيًا على الأقدام، وفي النهاية دخلت إلى مخزن إحدى السفن وتسللت بين أقفاص الحيوانات. كانت السفينة ذاهبة إلى برشلونة، لكنها لم تستطع عبور الحدود من هناك أيضًا. عاقبة الأمر أنها سارت مشيًا لشهرين في الثلج والصقيع لتنزل من جبال «البيرنا» إلى هذا الطرف.
- كنت مضطرة إلى أن أبيت في الليل على القمة، كان الثلج يغطي كل مكان. تمكنت من جمع بعض الأغصان في ذلك البرد والظلام بصعوبة. وسط فتحة صخرتين أشعلت نارًا وحين تأججت النار رأيت أفعى ملتفة أمامي. لم أرد أن أموت من دون أن أراك فقلت إنني لست أقل من عازف المزمار. فعزفت وكشفت أنيابها ثم ثقلت جفونها. لقد أثر نفسي فيها ولم يؤثر فيك!
عندما تناولت السكين لملمت أغراضها. حين نزلت من الدرج نظرت إلي. لم توبخني ولم تحزن، فقط نظرت إلي وذهبت.

٢

البارحة كانت الريح تهب طوال الليل. كانت غرفتي كقطعة خشب وسط العاصفة. كنت أسمع صوت انحناء هيكل البناء الخشب بوضوح. كان مواء قطة بنديكت المستمر وتردد صوت وقوع وانكسار شيء في صوت الريح بين الفينة والأخرى يرسم وجه الليل. وكلما أردت النهوض لأغلق النافذة كانت قصيدة شاعر مجهول تلهيني:

«لتأتي الريح
وتكنس الغرفة والأوراق
ومن هذه النافذة
التي هي فم ميت على الحائط
أنزلق في الليل.
وأدور مع جيش النجوم المتجمد...».

كانت الريح تعصف مثل بحر هائج. وكانت كل مرة تضرب الأبواب والجدران ملتفة في صوت وقوع وانكسار. ظننت أن الريح ستأخذ نافذة غرفتي معها والطرف الخارجي لزجاج النافذة وبعيدًا قليلًا تقطع رقبة المار المنحوس، وتتناثر آلاف شظايا الزجاج المدمية على الإسفلت ويتدحرج رأس المار المسكين المقطوع إلى أمام باب دكان الخبز. ارتعشت من هذا المنظر فقفزت بلا إرادة باتجاه النافذة، وكأن هذه القفزة امتداد الرعشة إياها وأن دوائرها مثل دوائر الحجر الذي وقع في بركة الماء، تتسع من خوفها الداخلي حتى النافذة.
كانت النافذة عبارة عن إطار معدني قد ركب عليها الزجاج بشكل غير محترف ومثل أكثر النوافذ في غرف تحت السقيفة كانت تتحرك بطريقة عمودية، وتفتح باتجاه السماء وتغلق باتجاه الأرض. وكان التحكم بالنافذة عن طريق قضيب معدني موصول بحافتها وله ثلاثة ثقوب متساوية الفواصل وبتمركز هذه الثقوب على اللسان المعدني أسفل النافذة يمكن فتح النافذة بدرجات مختلفة. وكانت نافذة غرفتي مفتوحة على الثقب المتوسط. عندما لمست القضيب خطرت ببالي فكرة مشؤومة وكالعادة حين أخاف من شيء ما يصيبني الشيء نفسه. هذه المرة أيضًا حين حررت القضيب من داخل اللسان تحققت هذه الفكرة: الريح القوية التي هجمت علي في تلك اللحظة رمتني إلى الخلف، واقتلعت النافذة من مكانها مع مفاصلها، وحملتها معها مثل ورقة تدور في الهواء. وكأن اللسان لا المقبض هو ما كان يضمن وقوع هذا الحادث المشؤوم.
وقفت بلا حراك بانتظار صوت مرعب. كان هناك رجل مار ثمل مشرد سيء الحظ يقترب وسط الريح مترنحًا. كان الزجاج الذي انفصل عن الإطار يدور في الجو. انفصل رأس الرجل المنحوس عن جسده وتردد صوت تكسر زجاج النافذة في رأسي آلاف

المرات. أما في الخارج فلم يكن هناك إلا صوت الريح وما من صوت تكسر أو إصابة. كانت قطة بنديكت التي كانت تموء قبل دقيقة صامتة الآن. وقفت محتارًا وسط الغرفة وكأن ما
حملته الريح لم يكن زجاجًا ومعدنًا بل قطعة حرير. اقتربت من النافذة مذهولًا؛ كان إطار النافذة عبارة عن حفرة مظلمة، فم وحش بلا أسنان. أردت إخراج رأسي من النافذة علني أرى شيئًا إلا أن فكرة مرعبة دفعتني إلى التراجع بسرعة: أو يكون زجاج النافذة مثل شفرة دوارة في هذه المنطقة تنتظر أن أخرج رأسي بدافع الفضول وعندها...
هل من الممكن أن تكون فكرة اختراع المقصلة خطرت لمخترعها في مثل هذه الليلة؟ لو أن الفضول سيورطني ماذا ستكتب الصحف غدًا؟ رجل لم يكن شريك لوي السادس عشر في السعادة ولكن في الموت...
عدت إلى السرير، وبينما أنصت جيدًا تذكرت كلام بروفت. كان سريري سرير الشيطان وتنتظرني حوادث غير سارة!
ما الأسوأ من أن تحمل الريح نافذتك ولا تعرف إلى أين؟
إلى متى سنكون مسئولين عن أعمالنا؟ أردت إغلاق نافذة غرفتي لكن عاصفة اقتلعتها من مكانها وحملتها معها. إن لنافذتي مصيرها المستقل فقد تكسر رجل عابر السبيل المنحوس بدلًا من أن تقطع رأسه أو قد تكتفي بجرح سطحي ولكن هذا لا يعني نهاية العالم بالنسبة لهذا الأمر. ولنفترض أنها سقطت في مكان ما من مار فيه أصلًا. ازداد صوت تهشم زجاج النوافذ على الإسفلت وتابع تحركه في عدة جهات مختلفة.
كانت زوجة كلانتر الهزيلة جدًّا تتناول حبة ليزانكسيا ثم تخلد إلى النوم، إلا أن في الآونة الأخيرة كانت بنديكت تطرق عليهم الباب بعنف ليلًا أو في منتصف الليل: «ضجيجكما يمنعني من النوم». وفي كل مرة كانت زوجة كلانتر تقسم بالله وبالرسول أنهم لم يصدروا صوتًا وأنها تتخيل فقط.
منذ بضع دقائق أيضًا وبينما كانت بنديكت تطرق الباب بشدة وتصرخ عليها: «إن لم يكن لديكما ما تفعلانه أيها المزعجان فعلي أن أنهض في الرابعة صباحًا وأذهب للعمل!».
كانت تقول الحقيقة؛ كان يجب أن تنهض في الساعة الرابعة لكنها كانت تذهب إلى عملها في الثامنة. بعد ذلك تضيف: «لا أحد يغسل الصحون في منتصف الليل». كانت زوجة كلانتر تضيق ذرعًا وتهجم عليها لتضربها. فكانت بنديكت تهرب وتغلق باب غرفتها من الداخل. عندها يصل فريدون: «ماذا حصل؟». فأجهشت زوجة كلانتر بالبكاء: «سأجن». كنت أجلس بصمت أقرأ اللغة الفرنسية. تقول إن صوت غسيل الصحون أيقظها!».
في تلك اللحظة يقول فريدون شيئًا ظنًا منه سيهدئها، لكنه كان كمن يرش البنزين على النار فتشتعل زوجة كلانتر بالكامل.
حتى عودة كلانتر من عمله ليلًا تتناول زوجته قرصًا آخر وتنام إلى الغد. بعد قليل سيكون صوت ارتطام زجاج النافذة بإسفلت الشارع الضربة المناسبة ذاتها التي تحتاجها زوجة كلانتر لتدرك أن ليست كل الأصوات تزعج بنديكت، وعندها تتذكر كلام فريدون وتتخذ قرارًا غريبًا.
وعندما يتكرر هذا الأمر يتحول إلى نسيم مناسب أو طوفان في شيكاغو ليس له صلة بنا.
في الطرف الآخر من الشارع كان جان يغازل أمانويل وقد كان قبل فترة يعاني من مشاكل بسبب لا مبالاة أمانويل له لأنه شاب خجول ولا يملك ثقة في نفسه مما اضطرت في كل مرة إلى اختلاق ذريعة لتبرير ضعفه. كما أن إظهار عدم اكتراث أمانويل لهذا الأمر لم يكن مزعجًا فحسب بل وزاد من عدم ثقة جان بنفسه وزلزله. ولاسيما أن أمانويل لم تعد حتى تزعج نفسها بتشغيل الجرامافون.
بما أن جان ضاق ذرعًا بهذا الوضع فإنه أعطى نفسه فرصة أخيرة، فنام جيدًا في الليلة السابقة وأخذ حمامًا باردًا قبل مجيئه وتناول طعامًا خفيفًا وابتلع قرصي «كربوسيلن» بلا تردد لكي لا يقطع انتفاخ معدته تركيزه أثناء العمل، ولأول مرة شغل الجرامافون بنفسه.
أثناء غناء أوبرا كارمن، وعلى الرغم من استمرار العاصفة التي هزت المبنى، كان كل شيء يسير حسب ما يشاء جان ويشتهي. حتى بعد فترة – مع أنها ليست بشدة السابق – بدأت أمانويل ترفع كارمن صوتها إحساسًا مترافقة مع الغناء. «أعلى، أعلى، أعلى. لالالا، لاهاهاها. لالالا، لاهاهاها». ولكن في اللحظة التي تتساقط فيها دموع جان من الفرح يفسد صوت اصطدام المعدن والزجاج الرهيب كل شيء.
وحتى وإن لم تكن أمانويل قد قررت أن تقول الحقيقة لجان في تلك الليلة بأية وسيلة فإن الأمر لم ينتهي بحركة بسيطة مني – كإغلاق النافذة – عند هذا الحد.
لم يكن هناك أي صوت في الخارج. كانت العاصفة قد هدأت ولم يكن هناك أثر لسقوط نافذة غرفتي. تقبلت حقيقة أن الريح لم تحمل معها سطحًا معدنيًّا وزجاجيًّا بل قطعة حرير. ولكن لم يكن هناك مانع من أن أتخيل
عواقب الأمر. إن حركة شيء برقة الحرير قادرة أيضًا على أن تحدث فاجعة أكبر مما تحدثه حركة جناح الفراشة:
في الشارع يسأل أحدهم امرأة عن التوقيت؛ فتتوقف المرأة وتنظر إلى ساعتها وتقول: «الخامسة وعشر دقائق».
طبيعي أن يكون لهذا السؤال العملي نهاية، إلا أن هذا العمل مثل وحش حديث الولادة يتابع حياته في عالمه المستقل من دون أن تعيره انتباهًا. إن هذه الثواني القليلة كافية لأن تتأخر المرأة التي دخلت بسرعة نفق المترو، عن القطار الذي انطلق في تلك اللحظة. بعد دقيقتين يصل قطار آخر وتركبه المرأة. وبعد بضع محطات يحدث اصطدام مريع مع قطار آخر قادم من الناحية الأخرى مما

يؤدي إلى موت عدد من الركاب. والمرأة التي كان من الممكن أن تركب القطار السابق يسجل اسمها في قائمة ضحايا ذلك الاصطدام بسبب ذلك العمل البسيط.
برأيك قد تكون هذه الأحداث فرضية سخيفة يمكن أن يخترعها فقط عقل مريض مصاب بجنون العظمة.
حتى وإن كان الشخص الذي سأل المرأة عن الوقت في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة بعد ظهر الثالث عشر من نيسان السنة الماضية تمامًا مقابل بوابة دخول مترو «أوبر كامف» يؤمن بهذه النظرية السخيفة، فإنه حين يرى الصور والأخبار المتعلقة باصطدام القطارين في «كار دو نور» لن يتخيل أن موت تلك المرأة هو نتيجة لذلك السؤال الصغير.
وبموت تلك المرأة فإن الرجل الذي كان واقفًا منذ مدة في مكان قريب من نهاية إحدى دوائر الموت قد سيق خطوة أخرى إلى الأمام!

٣

كنت أتمنى أن يلحقوا بي أي بلاء يريدونه ولا يعيدوني إلى ذلك الجحيم. لنترك كل شيء جانبًا، ماذا سأفعل إن عدت؟ لم يعد لدي أحد. لقد ماتت زوجتي في حادث سيارة، وابنتي التي وقعت ضحية معتقدات غريبة رأت أن النهاية قريبة، فاختفت في أحد الأيام؛ ولكن بعد أن بحثت عنها في كل مكان رجحت الشرطة أن تكون جزءًا من الضحايا المجهولين لفرقة «معبد الشمس» لأنهم وجدوا صورة الدكتور لوك جوريه قائد الفرقة بين صفحات كتب دراستها. بقيت خاتون التي أرسلتها إلى مأوى العجزة. الآن إن عدت سأضطر كل أسبوع حين أذهب لرؤيتها إلى أن أشهد توسلاتها: «أنقذني من هؤلاء الكفار. يطعموننني لحمًا نجسًا، ماذا سأجيب الله غدًا؟».
كنت قد قلت لها أن مأوى العجزة هذا للمسلمين، أما الآن وقد فهمت كل شيء كيف سأقنعها؟
كلا، لم أعد قادرًا على العودة إلى ذلك الجحيم. التفت إلى صديقه الذي إلى جانبه بأسى: «أنت تعلم من طعنني في ظهري بالسكين!».
فقال صديقه الذي إلى جانبه وقد وضع كرسيًا خشبيًا تحت كتلة الضوء ووضع ساقًا على ساق ونفخ نفخة قوية في غليونه: «أجل، ولكن من حرضه؟».
وجه دخان الغليون إلى الأسفل مما جعلني أتأكد أنني ميت وأقبع في العالم الأعلى. لذلك، ولأول مرة قررت أن أجيب على كل شيء بصدق تام. قلت: «تستطيع أن تقارن الرواية غير المحرفة للأحداث التي بحوزتك مع كل ما أقوله».
فتح صديقه الهندي الأحمر رزمة أوراق هي الرواية غير المحرفة للأحداث وفي أعلاها علامة توشيبا التجارية: «كتبت هنا أن السيد أدرك بأن الكلمات لا قيمة لها، لذلك كان يتحدث بلا تردد. كما أنه أدرك شيئًا آخر: المحنة النفسية وحاجة الإنسان الملحة إلى سماع كلام دمث وتمجيد بلا أساس». في الليلة التي اقترحت فيها رعنا على السيد أن تطبع عمله رجف عرقه الرفيع تحت جفنه الأيسر، تأنى ثم قال: «ليس أكثر من عدة صفحات، سأطبعها أنا رويدًا رويدًا». وقال ذلك وهو يغادر ولكنه ندم مباشرة وبقي نصف ساعة أخرى ليقول لها: «هل كنت جادة في عرضك؟ وبجوابها الإيجابي أخذ رعنا معه. لم يكن بحاجة إلى كل ذلك الوقت ليقوم بحساباته ويرى هل سيجرح شعوري بهذه المبادرة. وفي هذه الحالة هل سيتمكن من اللعب على نحو وكأنه تفضل علي بهذه المبادرة؟ (مثل تلك الليلة في إحدى الضيافات حين سألته الفتاة الأمريكية جيسيكا من أين أنت، فأجابها: «غُم وقال ذلك بحيث أنني أنا الذي كنت شاهدًا على هذا الحوار ظننت بالتأكيد أنه يقصد «قُم» مسقط رأسه وهي مدينة صغيرة صحراوية. فظنت جسيكا التي لم تكن تعرف أين تقع إيران من الكرة
الأرضية أنه يقصد (روم). وحين بدأت جسيكا تتحدث متحمسة عن جمال وعظمة الصروح التاريخية لهذه المدينة، أبدى السيد الاهتمام بها لتظن جسيكا أن هذا الشاب الإيطالي يمدح معرفتها بالجغرافيا ولأظن أنا أن هذا الشاب اللطيف لا يريد حتى فيما يخص أمرًا بهذا الصغر أن يحبط شخصًا. أجل، كان على السيد أن يقوم بحساباته فإن اضطر إلى خسارة أحدنا أنا أو رعنا أينا أفضل (في النهاية، فإن السيد وجد شيئًا في يراه مفيدًا؛ كان على أحدهم أن يبدي رأيه حول تلك الأغنيات الفجة التي كان يؤلفها أحيانًا، وحسب تجربته أن يقوم بترتيبها ونظمها). كانت حسابات السيد صحيحة. ولكن مع كل دهائه فإنه لم يحسب حساب شيء واحد: أن جدران هذه الغرف أرق من الورق وأن في الغرفة الملاصقة لغرفتي هناك شخص يعيش متحسرًا لأنه عندما رأى زوجته في حضن رجل أجنبي ضخم سلّم الأمر إلى الله ولم يذبحه من الوريد إلى الوريد. كان الجواب الإيجابي الذي أعطاه السيد لرعنا ارتعاشًا صوتيًا بسيطًا ولد بين شفتيه وأسنانه وبعد عدة أيام تبدلت هذه الحركة المستقلة إلى سكين اتجهت ذؤابتها المهددة إلى عنقه وبعد ذلك شفرتها الخارقة نحوي.
تنحنح صديقه الذي إلى جانبه: «حسنًا، في هذه الرواية غير المحرفة حسب قولك، فإنك أفسدت كل شيء على السيد المسكين!».
- اسمعني... يا سيدي... الرفيق، صحيح أنه في تلك الليلة حين أعطى رعنا جوابًا إيجابيًا كان يعلم أن علاقتي معها أصابها البرود. لكن الفخ الذي خبأه لها كان أظرف من ذلك بكثير. كان السيد يعلم أن أفضل طريقة للإيقاع بالنساء هي أن لا يقوم بأي شيء على الإطلاق. وحسب التجربة التي اكتسبها فإن النساء يعشقن الرجل الذي يستقبلهم بسرور بينما لا يظهر أي اهتمام تجاههن لكي تحس المرأة بأنه قادر على الوصول إلى أخفى زوايا روحها. وكان السيد قادرًا على الوصول إلى أخفى زوايا روحها! لكن الأحداث لم

تكن بتلك البساطة؛ في الحقيقة كانت لعبة معقدة يمكن لأي شخص أن يكون الفريسة أو الصياد فيها. حين رأت رعنا التضارب والأنانية في تصرفاتي ظنت أن الشيء الوحيد الذي ستحصل عليه بوجود علاقة بين شخصين هو الطعام والمأوى فقط فلم لا تقيم علاقة مع شخص قادر على أن يعطيها إمكانيات أكثر من ذلك؟ كانت غرف السيد متداخلة ومساحتها أكبر كما أنه أضاف ماء ساخنًا للاستحمام. بالمجموع، فإنه جعل غرفه بشكل شقة صغيرة ليس لها علاقة بغرف العلية، فضلًا عن أنه غالبًا ما كان يتناول الغداء في المطعم.

حين أخذ السيد رعنا إلى غرفته ظن أنه اقتنصها. لكنه لم يكن يعلم أنه منذ يومين سألتني رعنا التي لم تكن تفهم شيئًا من طريقة حياة السيد: من أين يعتاش السيد؟ وحين أجبتها بنفس المصطلح الذي يستعمله السيد: «من معرض البساط!». جحظت عيناها واشتعلت شعلة في عقلها، للتحول في اليوم التالي إلى امتناعها عن النوم معي ومن ثم إلى اقتراح طباعة قصص السيد ومن ثم إلى سكين بروفت بعد عدة أيام.

سحب صديقه الملاصق له نفسًا قويًّا من غليونه وقال: «حسنًا. وجدت في هذه الأحداث شريكين للقاتل! ألا تود أن أصدق بأنك قمت بدور المقتول فقط في هذه الأحداث!؟».

- اسمع... لا أعلم أن شريكك الآن هنا أيضًا أم...

- ذهب إلى مكان ما وسيعود.

انتابني القلق. فاستغللت الجو الحميم الذي تشكل بيني وبين صديقه الملاصق له وسألته: «إلى أين؟».

- ترك أقراصه فذهب ليحضرها.

- أي أقراص؟

- ليزانكسيا. كنت تحكي.

- اسمعني، سيد... آه، اللعنة على هذه العادة اللعينة...

- لا يهم. قل ما أردت قوله.

- أجل... أيها الرفيق... لقد حاولت كثيرًا أن أعمل بنصيحة ذلك الرجل المضبوط. ولكن حبي لم يدم. عند بداية الأسبوع كنت إما أنا الذي ينتابه الياس أو الطرف الآخر. ثم، إن سمحت لي، كيف أقول ذلك... لم يكن أحد أعضاء جسدي يعمل...

- بسبب ليزانكسيا!

كان ذلك صوت فاوست مورناو الذي تردد في الفضاء، فالتفت صديقه الملاصق له يسارًا بينما كان ينفض غليونه.

فقلت: «قيل إن هذا بسبب النفي. قيل إن كل شيء يمر في رأس الإنسان. حين يصاب الدماغ بالشلل يتوقف الجسد عن العمل. لكنني أظن أن «م أ ر» ألقت علي تعويذة!».

- هذا ليس صحيحًا، هذا بسبب ليزانكسيا!

أردت أن أقول ألا تخافان أن تشتكي عليكم الشركة التي تصنعها، إلا أن لساني قال: «ألا تخافان، فأنتما تتناولانها؟».

- أنا لا أملك زوجة. كما أن له خواصًا، لماذا تظن أن السيد كان يتناولها حفنة حفنة؟

- كان يعاني من مشاكل قلبية.

- أنت ساذج!

- إذًا فلماذا كان يتناولها؟

- تابع كلامك.

- كانت رعنا مثل جميع النساء، ضحية لا ذنب لها أضيفت إلى آلامي؛ لأنني كنت أبحث عن شخص آخر، عن فتاة ضاعت في النهر. ومن ناحية كان وجودها يجلب المشاكل لا أكثر. حين رأيت أنها والسيد رأيا حلمًا عن بعضهما قلت لنفسي إن لم يكن هناك سبيل النجاة إلا هذا فسأقربهما من بعضهما.

قال فاوست مورناو الذي كان يجلس الآن مكان صديقه الملاصق له: «وقمت أنت بالعمل على تنفيذ خطتك!».

- في الحقيقة لم يكن لي دور خاص؛ كان علي فقط أن أساعدهما في أداء دورهما. أراد السيد أن تكون يده ملأى وكنت أعطيه معلومات أكثر من اللازم، لدرجة أن رعنا شعرت بأن السيد قادر على الوصول إلى أكثر الزوايا المخفية في روحها! بعد ذلك ولأقنع السيد أنه لم يعد بيني وبين رعنا أي علاقة، ضربت موعدًا في حفلة إينغريد عمدًا. قررت رعنا ألا تنام معي مجددًا آملة أن تسهل ارتباطها بالسيد. وبإخبار السيد عن هذا الموضوع سهلت له الطريق بسرعة. وفي اليوم الذي عرضت عليها المساعدة في المطبخ كنت أعلم أنها تتألم لفقدان الدفء الإنساني وليس بسبب بعدها عن السيد. وبذهاب السيد وهدوء الطابق كانت تلك بمثابة فرصة لها لكي تراجع الماضي وتستوعب أخطاءها. أما أنا فبدلًا من أن أغتنم الفرصة حاولت أن أفهمها أن ألمها بسبب ابتعاد السيد. ثم سيرت الأمور كلها لكي يصل الاثنان إلى بعضهما.

- لا تتأمل كثيرًا. أتعلم ما حصل بينهما حين ذهبت رعنا لترافق السيد إلى منزل أنابيس في ليلة الهجوم؟

- كلا، لا أعلم.

- هل صدقت قضية كمين بروفت وراء باب غرفة رعنا؟

- أتقصد أنه لم يكن حقيقيًا؟

- إن كنت تذكر وضع السيد عدة أقراص ليزانكسيا في فمه.

- أجل، ولكن أصابته نوبة قلبية ثانية.
- لا! كانت قضية النوبة القلبية مجرد قصة اخترعها ليفهم زوجته أو أي شخص آخر أن عمره قصير.
- ماذا يستفيد من ذلك؟
ابتسم فاوست مورناو هازئًا: «ماذا يستفيد؟». ثم، وهو يقلد حركات أنابيس تابع قائلًا: «آه... شاب بهذا اللطفّ للأسف عمره قصير! إن كان الأمر كذلك فمن الأفضل أن لا نمنعه من الاستمتاع بالحياة!».
- أتعني أن هذه المشاهد كلها كانت لعبة؟
- أتعني أنك لم تكن تعلم؟
- حسنًا، ربما إن لزم الأمر قد يستفيد من ذلك. ولكن لماذا كان يتناول ليزانكسيا؟
- لماذا تتناولها أنت؟
- في البداية كنت أتناولها من أجل إزالة الاكتئاب. ثم حين انتبهت إلى خواصها الأخرى أصبحت أتناولها عندما يكون لدي موعد مهم.
- بالنسبة له كانت جميع المواعيد مهمة. لذلك كان يتناولها كل يوم حفنة حفنة.
- إذًا فعلى هذا الأساس هو أيضًا...
- كان بالنسبة له شيئًا مهمًّا: كان مغناطيس وجوده!
كان يقول الحقيقة. تذكرت اليوم الذي نسى فيه السيد مفكرته اليومية وقمت أنا الجاحد الفضول بالتجسس (حيث كان أعطاني ذلك الشاب اللطيف مفتاح غرفته الإضافي لكي لا أضطر إلى الذهاب إلى المسبح أو الحمام العام من أجل أن أستحم). في إحدى صفحات هذا الدفتر كتب نقلًا عن كتاب «الشيطان وآخرون» لروزا سيغما: «في داخل كل إنسان هناك طفل يعيش معه إلى آخر عمره. يكفي أن نبعد الخطوط والتجاعيد التي يتركها الزمن على وجوه الناس، لإخفاء أثره، ليكشف ذلك الطفل وجوده. هذا هو السبيل الوحيد لكي لا نصبح مذعورين ولو كان عظيمًا. أو إن أردتم فإن هذا هو السبيل الوحيد لإرعابه. وبكلمة واحدة هذا هو مغناطيس الوجود». وأضاف السيد أسفله: «الخطوط والتجاعيد تفضح المرء! لذلك يجب العثور على وسيلة لاستبدال الوجه بقناع..». وأضاف في السطر التالي بسرعة: «ليزانكسيا! ليزانكسيا!».
مذعورًا من سعة معلومات فاوست مورناو وصديقه الملاصق له وسعيدًا بقراري العاقل المبني على اعترافي، توجهت إلى الموضوع الذي كان يقلقني: «أنتما تستعملان الماضي في كل شيء. هل حصل له شيء؟».
- كان عمره قصيرًا!
- إذًا لم يكن يكذب.
حدق فاوست مورناو بنقطة غير محددة: «لقد جذبته هذه الفكرة حتى وقع في فخها». ثم وهو يقلد حركات السيد أضاف قائلًا: «إن العمر القصير يملأ الحياة!».
- ومم مات؟
- جراء نوبة قلبية!

٤

كان النعاس قد غلبني للتو حين أيقظتني ضجة امرأة: «انزل، انزل، أرجوك، أرجوك».
أتت طيور القمري مرة أخرى في الصباح بعد مضي فترة قصيرة على صراخ إريك فرانسوا شميت الحاد وأنين غابيك الذي يفطر القلب. في الليلة الماضية حملت الريح نافذة غرفتي معها وهذه المرة دخلت طيور القمري، التي كانت تصرخ بشدة وعصبية أكثر من السابق، من النافذة وأخذت تسير على الطاولة وصف الكتب وتصرخ بأعلى صوتها:«يجب أن يعدم! يجب أن يعدم!». واتجه عدد من طيور القمري إلى حافة حاملة الرسم وحط أحدها على ذراع الكرسي الخشبي الباهت اللون الموجود بجانب الباب، وأخذ يصرخ بكل قوته: «يجب أن يعدم! يجب أن يعدم! اه!».
منذ أن فهمت في النهاية ما تقوله طيور القمري بذلك اللحن ذي النغمة المشؤومة لم أعد أحتمل صوتها. في البداية كنت أقول في نفسي: «أنت تتخيل، فلا تقع في الفخ!». لذلك حاولت أن أسمع كلمات أخرى بدلًا من «يجب أن يعدم!» في البداية أقنعت نفسي أنها تقول: «يجب أن يستيقظ!». لكنني تركت الفكرة سريعًا لأنه فضلًا عن عدم تناسب قافية هذه الجملة مع لحن نغمة طيور القمري فإن هذا الشعار كان يطير النوم من عيني. وأثناء بحثي عن جمل مناسبة توصلت إلى شعار «يجب أن يوجد» لكن قافية هذا الشعار أيضًا لم تكن تناسب النغمة؛ ثم وصلت مرة أخرى إلى هذه النتيجة بأن طيور القمري لا تنشد شعارًا آخر غير هذا. وحين أتت فوق رأسي تمامًا صرخت بقوة مما جعلني في النهاية أفكر في شعار ذي قافية مناسبة للنغمة ليس له معنى مؤذ: «يجب أن يقدم! يجب أن يقدم!». ولكنني مع ذلك لم أستطع النوم لأنني كنت أسال نفسي طوال الوقت: «على ماذا؟».

حين غادرت الطيور أخرجت رأسي من تحت اللحاف. كان سطح الطاولة والكتب وكل أنحاء الغرفة مليئًا بالفضلات. وفي الأعلى قليلًا على صف الكتب المغطى بالتراب، وقع نظري على قمري عجوز جالس ورقبته محنية بين ريشه، ويرتجف. كان هناك شيء قد وقع على الأرض إلى جانب الكرسي فلم أعره أهمية لأنني كنت معلقًا في حالة بين النوم واليقظة. والآن كان هناك ذلك الصوت الغريب... بالأمس يعني اليوم كان الممر هادئًا تمامًا بعد مدة طويلة!

- انزل، انزل، أرجوك.

ظننت أنها أمانويل ولكن لم يكن هناك ما يدل على المتعة في ذلك الضجيج. أردت أن أتقصى الأمر، ولكن أرقي المستمر لم يدع لي قدرة على الخروج من السرير، فشددت اللحاف على رأسي. إلا أن تكرار كلمة «انزل» أثار فضولي.

- انزل، انزل، قلت لك انزل أيها اللعين!

حاولت من مكاني في السرير ومن خلال الكلمات التي كانت تقال ممزوجة بضجيج وبكاء أن أحزر ما يحدث. لكن الصوت كان غريبًا والكلمات معدودة وخيالي ليس له حدود.

نهضت. كانت مثانتي تنغزني منذ مدة وحين وصلت إلى الحمام تسمرت في مكاني. كان صوت الضجيج آتيًا من داخل المرحاض! والأغرب من ذلك أن نافذة غرفتي التي كانت قد طارت في تلك الليلة كانت موجودة أمام المرحاض على الأرض إلى جانب الحائط. فعدت إلى غرفتي محتارًا.

ثم أخذ ذلك الصوت الغريب يمتزج بلحن ملتمس: «أرجوك! أرجوك!».

أعادتني تلك الضجة عدة سنوات إلى الوراء. إلى باحة بيت قديم، إلى مرحاض الباحة. إلى فتاة ذهبت إلى المرحاض بصنارة الحياكة. إلى صديق شاب كان يجلس إلى جانبي غارقًا في عرقه وكان يمسك بساعدي مع كل صرخة الفتاة، ويبكي بصوت عال: «يالها من جريمة وحشية! يا لها من جريمة وحشية!».

- انزل إلى هنا، أرجوك! أرجوك، أعدك.

إضافة تلك الجملة الجديدة إلى الكلمات المتكررة جعلني أستيقظ من تخيلاتي المرعبة ونسج الأفكار الحمقاء، ومرة أخرى أرسلني الضغط المتصاعد لمثانتي، أنا الذي كنت أتجنب التدخل في حياة الآخرين، عصبيًّا ومتعبًا إلى الحمام. كان الباب لا يزال مغلقًا والضجيج مستمرًا بلا توقف: «سامحني! أعدك. انزل، أرجوك!».

وبإضافة كل كلمة جديدة أخذت صورة وجه المرأة التي تتحدث شكلًا جديدًا. تذكرت الناطور وزوجته. لقد فاجأتهما عدة مرات في مرحاض الطابق. إن تواجدهما معًا في نفس الوقت هناك بالإضافة إلى سابقة إدمانهما وبعض القرائن الأخرى لم يدع مجالًا للشك أن مجيئهما إلى المرحاض مرتبط بتعاطي المخدرات.

كان تعاطي المخدرات شيئًا يخصهما لكن استخدام المرحاض في هذا الطابق وقد فقدت القدرة على تحمل ضغط مثانتي كان مرتبطًا بي ولاسيما أنهما كانا يملكان حمامًا في شقتهما في الطابق الأرضي. قربت رأسي من باب الحمام: «من هناك؟».

- انزل، أرجوك!

خرجت من ممر المرحاض الصغير ونظرت حولي؛ كان شق باب غرفة أمانويل مفتوحًا قليلًا. ارتعش قلبي. لم أستطع تخيل أن هذه الضجة تصدر من تلك الفتاة التي كانت دائما تمشي بهدوء وتتحدث بالنجوى.

طرقت على باب الغرفة طرقة خفيفة. دفعتني صرخة مرعبة إلى أن التفت وأدير قبضة باب المرحاض بسرعة.

لم يكن الباب يفتح. كان هناك شيء وراءه لم يسمح بذلك. دفعت الباب بكتفي فرأيت من شق الباب امرأة ظهرها لي تمسك قدم أحدهم بيديها وقد تدلى باقي جسده من النافذة!

الفصل الخامس: الجوارب المحاكة يدويًّا صناعة إيرانية

١

كان إريك فرانسوا شميت يحرك إبهام قدمه في جواربه السميكة الصوفية المحاكة يدويًّا والمصنوعة في إيران والتي أحضرها له السيد كهدية. تناول كتابًا كان على الطاولة وفتح الصفحة ٢٢٥ والتي كان قد وضع عليها علامة بفاتورة إيجار ميلوش التي لم تدفع...

عادت ماتيلد حاملة زجاجة شراب من المطبخ. ملأت كأس إريك فرانسوا شميت وبينما كانت جالسة أخذت تحدق به بعينيها المندهشتين، وسألته بصوت فيه طنين عاطفة غير بشري: «ماذا يحوي هذا الكتاب حتى لا تتركه من يدك؟».

في الليلة الماضية لم يستطع إريك فرانسوا شميت النوم رغم تقلبه من جنب إلى آخر. كان كلام كلانتر مثل شوكة منغرزة في دماغه تؤلمه. وقبل مجيء كلانتر بمدة قصيرة أتى السيد مرة أخرى حاملًا مسجل الصوت. كان السيد يقول: «إن عيب الفرنسيين أنهم لا

يقدرون أبطالهم الوطنيين بشكل كاف، ولكنهم في الوقت نفسه مستعدون أن يعترفوا بأخطائهم». ثم أضاف أنه في الأسبوع القادم سيأتي مع أشهر المصورين الفرنسيين ليلتقط له صورة.
مر شهران والسيد يأتي مرة أو مرتين كل أسبوع ليسجل مذكرات فرانسوا شميت. في البداية رفض إريك فرانسوا شميت ذلك. قال له السيد: «لقد كنت موجودًا في كل مكان ينبض فيه قلب في أوروبا. حروب أسبانيا الداخلية، جيش المقاومة، معسكرات النازيين. ثم خسرت... حياتك الخاصة... زوجتك الأولى في معسكر النازيين، وخسرت زوجتك زوجها الأول. والأهم من ذلك كله أن العمل الذي بدأته بهذا المبنى أمر مدهش. ومع ذلك فلم يقدر أصدقاؤك قيمتك. هل حصل من قبل أن أجروا معك مقابلة؟».
- كلا، لقد طبعوا مقالتي مرة أو مرتين فقط. حسناً على كل حال فأنا لم أفعل شيئًا مهمًّا.
- إنك متواضع إلى أبعد الحدود. أنت تجسيد حي لتاريخ فرنسا المعاصر!
كان الوقت بعد الظهر مملًا وقاتلًا. لهذا السبب كان ذلك أجمل وقت بالنسبة لإريك فرانسوا شميت حين كان السيد يأتي ويجلس ويدون ذكرياته.
وبعد نصف ساعة من ذهاب السيد جاء كلانتر ليصفي حساب غرفته. وحين كان يسلم مفتاح الغرفة قال: «نحن سنغادر لكن ذلك الرجل سحرك جيدًا، وهو الآن يخدعك».
اضطرب إريك فرانسوا شميت مندهشًا: «لا أفهم قصدك».
وضع كلانتر يده في حقيبته وأخرج كتابي الذي طبع بشكل فاخر ووضعه على الطاولة: «اقرأ هذا الكتاب وستفهم!».
كان إريك فرانسوا شميت ينوي أن يبدأ الكتاب من اليوم ولكن منذ بداية الليل وحين ذهب إلى السرير كان كلام كلانتر ينغرز في دماغه مثل الشوك؛ نهض وذهب مرة أخرى إلى غرفة الضيوف وفي تلك الليلة بدأ بالقراءة حتى الصباح بلا انقطاع. وفي الصباح نام ساعتين، وبعد استيقاظه تناول قليلًا من الفطور وأمسك الكتاب مجددًا.
سألته ماتيلد ثانية: «ماذا يحوي هذا الكتاب الذي لا تتركه من يدك؟».
حك إريك فرانسوا شميت، الذي اعتاد على نسيانها، اللحمة اليمنى لأنفه التي أصبحت بكبر التفاحة بطرف إصبعه، وابتسم ابتسامة لم تفهمها ماتيلد: «أمسية حفل أوركسترا الأخشاب».
فسألته ماتيلد التي لم تفهم شيئًا من هذا الجواب مندهشة: «هل هو عن الموسيقى؟».
مع أن إريك فرانسوا شميت كان قد تجاوز التاسعة والثمانين من عمره إلا أنه كان مركزًا تمامًا. فكان يتجنب قدر الإمكان استخدام جمل موبخة مثل: «قلت لك قبل ذلك...»، لكي لا يجرح مشاعر ماتيلد. بالإضافة إلى أن سمعه كان ثقيلًا فلم يكن يستطيع سماع صوت ماتيلد وبالتالي لم يكن متأكدًا إن كانت قد كررت ذلك السؤال
من قبل أم لا. وإن لم يكن يطلب منها أن تكرر كلامها فذلك من أجل ألا يقول لها شيئًا كهذا: «أنسيت أن سمعي ثقيل؟». وهذا ما كان يجرح مشاعر ماتيلد. لهذا كان يحاول أن يخمن ما تقوله فإن أخطأ التخمين فلم يكن ذلك مهمًّا لأن ماتيلد نفسها ستنسى ما قاله.
والآن هذه كانت المرة العاشرة منذ الصباح حيث يجيب فيها إريك فرانسوا شميت على هذا السؤال، أو ربما المرة العاشرة التي يظن فيها أن ماتيلد كررت السؤال السابق ذاته. مع ذلك وضع إصبعه بين صفحات الكتاب وحك لحمته الكبيرة في الجهة اليمنى: «هل تذكرين الرجل النحيف ذا الأنف الأعوج... الذي يسكن في الطابق الأخير؟».
لم ينتبه إريك فرانسوا شميت الذي كان متلهفًا لكي يتابع قراءة الكتاب للخطأ الذي ارتكبه وهو ما كان يرتكبه بندرة. «أتذكرين...» يا له من توبيخ صعب، وليخفي خطأه وينهي الأمر أضاف بسرعة: «لقد نشر مذكرات فترة إقامته هنا».
- من؟
- ذاك الذي يسكن في الطابق الأخير.
- تحت إشراف من؟
- كان عمره أربعين سنة، إيراني.
- ما كان اسمه؟
ظن إريك فرانسوا شميت أن تذكيرها بحادثة القتل التي وقعت في سلالم البناء لن يكون بالأمر السار. وليغير موضوع الحديث قال: «لم يبق غير بضع صفحات، حين أنتهي سأحدثك عنه».
نهضت ماتيلد وقبلت جبينه: «سأذهب لأنام. تصبح على خير».
حرك إريك فرانسوا شميت نظارته المعدنية ذات اللون الذهبي والتي انكسر ذراعها منذ مدة طويلة والمثبتة بخيط طويل على وجهه، وقال:«تصبحين على خير».
لم تكن ماتيلد قد خرجت من الغرفة بعد حين ناداها إريك فرانسوا شميت: «ماتيلد...».
- نعم.
وحرك إصبع قدمه الكبرى في جواربه ثانية: «ماتيلد...».
- أتريد شيئًا؟
- الجو بارد هذه الليلة. انتبهي لنفسك.
قال ذلك وفتح الكتاب...
***

... كان لزوجة ناطور البناء شعر ذهبي والمرأة اتي رأيتها من الخلف كان شعرها بلون شعر أمانويل.
شعرت بالاشمئزاز من نفسي لتدخلي في حياة الآخرين. استدرت وبمجرد وصولي أمام الباب وهنت قدماي.
إن عدم تدخل الفرنسيين في حياة الآخرين بالنسبة لي – أنا الذي كنت أحب الانطواء – ميزة كبيرة. لكنني سألت نفسي لأول مرة ما هي حدود عدم التدخل؟ وأن عدم التدخل هذا إلى أي حد يكون مزيتهم؟
لم أعرف ماذا أفعل. إن كانت الأحداث دراما حب تحتاج إلى عرض خارق لحل عقدتها فإن تدخلي سيخل توازن حياتهما، ولكن ماذا إن كانت حياة شخص على المحك؟
في الحقيقة لم تكن مشكلة فلسفية. كانت مثانتي تنغزني وعدم النوم يرهقني. وبالإضافة إلى ذلك، إن لم يكن المرء قادرًا على متابعة حياته فهذا شأنه. ولكن إن كان يريد أن يقدم عرضًا خارقًا لمشكلاته ويجبره وجودي على تحويلها إلى الواقع، إلى متى سيتمكن هذا التدخل من تعذيب ضميري وسرقة النوم القليل من عيني؟
حين فتح باب غرفة بنديكت فتح المشكلات علي. نظرت بنديكت إلي نظرة سريعة ثم استرقت النظر إلى نهاية الممر. سمعت صوت ضجة يرافقها شهيق امرأة: «سامحني! سامحني!».
نظرت إلي بنديكت نظرة مرة موبخة وأغلقت باب غرفتها بإحكام.
حسنًا لقد اتضح الأمر. يفضل الفرنسيون في مثل هذه الحالة ألا يتدخلوا في أمور الآخرين. فعدت بضمير هادئ إلى غرفتي وأغلقت الباب.
- انزل، انزل!
لم أكن أستطيع النوم أو الذهاب إلى الحمام. كان صبري قد نفد. فتحت الباب، وفي تلك اللحظة أيضًا فتح باب غرفة بنديكت. وفي هذه المرة أيضًا نظرت إلي نظرة خاطفة ثم استدارت باتجاه الممر واسترقت النظر. بعد ذلك نظرت إلي مجددًا وهي تغلق باب غرفتها. ولكن في هذه المرة لم تكن نظرتها فيها شماتة بل تأن!
يا للغرابة! بنديكت التي كانت تستغل أي فرصة لتطرق باب غرفتي لم تستغل هذه الفرصة التي جاءت على طبق من ذهب، ربما كانت تخشى أن تجرح مشاعر بروفت؟
ذهبت لأول مرة وطرقت باب غرفتها. فتحت باب غرفتها بحذر.
- هناك من يحاول إلقاء نفسه من النافذة! أظن أنه ميلوش.
لا أدري لماذا قلت ذلك الكلام الغبي. كان ميلوش شاذًا، لكن كلامي فعل فعله. وربما كان هذا الشيء الوحيد الذي يثير بنديكت. كانت بنديكت على علاقة طيبة مع ميلوش وكلما كانت تسافر كانت توكل إليه سقي أزهارها والاهتمام بقطتها.
ركضت بنديكت باضطراب باتجاه المرحاض.
- ميلوش! ميلوش!
لم أصدق أن هذه المرأة التي تركض باتجاه المرحاض بقلق وتنادي ميلوش بصوت مرتعش مليء بالعواطف هي المرأة نفسها التي تصدر دائمًا أوامر حربية حادة لاذعة في جريدة الحائط وتتشاجر مع هذا وذاك في أي لحظة.
وفجأة سمعنا صوت صراخ عال من داخل المرحاض. خرجت بنديكت باضطراب من المربع الصغير أمام المرحاض وطلبت مساعدتي. تقدمت مذعورًا. كان باب المرحاض مفتوحًا. التفتت إلي المرأة بينما كانت تمسك بإحكام بقدم رجل. كانت أمانويل! كانت عيناها حمراوين من كثرة البكاء.
تحركت بنديكت بشكل قاطع إلى الأمام: «تعال وساعد!».
كانت أمانويل ما تزال تثير جلبة؛ لم تكن بنديكت قد لمست قدم الرجل بعد حتى أدخل الرجل رأسه من النافذة بهدوء: «اذهبي واغربي عني!». قال ذلك بحسم وثقة وكأنه لم يذهب إلى الأعلى بهدف الانتحار بل ليصلح شيئًا.
بما أنني كنت وراء بنديكت فإنني ذهبت وغربت بسرعة. كان واضحًا أن وجودي لم يكن مزعجًا فقط بل أنني ارتكبت خطأ مريعًا آخر. كان الشخص في الأعلى هو جان لا ميلوش! والأسوأ من ذلك أنه بدا واضحًا أنني تعمدت إخراج بنديكت التي لم تكن تنوي التدخل من غرفتها لكي تسمع الشتائم!
دخلت غرفتي بسرعة وحين كنت أغلق الباب رأيت بنديكت التي كانت تغلق باب غرفتها وللحظة تلاقت نظراتنا وعندها أطلقت علي صاعقة تحمل شتائم العالم من خلال نظرتها المجروحة الغاضبة.
***
عندما كنت ممثلًا (كانت تلك إحدى المهن العقيمة في حياتي) أديت جملة بشكل آلي ولم تستطع الإرشادات الموجودة أن تبعث مخيلتي، فأرسلني المخرج الذي كان شخصًا مستبدًا سيء الخلق باسم قاسمي، إلى المنصة لأقف تحت بقعة ضوء مسلطة وقال: «كرر الجملة نفسها بلا توقف حتى أؤمرك». كررت هذه الجمل لبضع دقائق بهذا الشكل إلا أنه لم يوقف عمله، وشيئًا فشيئًا أصابني الملل. وبينما كنت أكرر تلك الجملة حاولت أن أقول له بعض الأشياء من خلال تغيير اللحن: «لا أدري ما هدفك. ولكنني أكاد أصاب بالسأم. إن كان من الممكن أن تتوقف حتى أتخلص من شر هذه الدائرة المغلقة». لكنه لم يتوقف. فأخذت أرهق شيئًا فشيئًا ورحت أقول له أشياء أخرى من خلال تلك الكلمات المكررة: «توقف عن ذلك! تكاد حنجرتي تتشقق، ما علاقة هذه الأوامر المستبدة بالمسرح؟».
لكنه مرة أخرى لم يتوقف. فرحت أضيف كلمات أخرى بعد هذه الكلمات المكررة: «من فضلك! من فضلك!».

كنت فعلًا متعبًا وأخذت أؤدي الجمل الأخيرة بفك مرخي ولكنه لم يستسلم. وحين رأيت أن قلبه من حجر وأن رأسه من طبشور سخطت بالكامل، ورحت أقول أشياء أخرى بعد تلك الكلمات المكررة: «دعني أنزل يا ابن
الحرام! كاد الماء الآسن يصل إلى السقف. هذا الوضع لا يحتمل، توقف أيها اللعين!». ثم سكت وأضفت هذه الكلمات مترجيًا: «من فضلك! من فضلك!».
في النهاية حانت اللحظة التي سألت نفسي فيها وأنا متعب وعاجز: «ما معنى عناد المخرجين كله؟». وبعد ذلك بقليل حين أدركت أنني غيرت لحن الجملة التي كنت أكررها بلحن واحد بلا توقف ألفًا ومائة مرة، أن هدفه لم يكن إلا إيصالي إلى هذه المرحلة فكررت الجملة ثانية، ولكن في هذه المرة بدافع الشكر وبحالة سعيدة ونغمة «سامحني. سامحني».
إن كان بالإمكان إيضاح جميع المشاعر البشرية بعدة كلمات فلماذا اخترعت البشرية كل هذه اللغات إذًا؟ ليوضحوا قصدهم بشكل أفضل؟ إذًا فلماذا لم تكن أمانويل توضح قصدها بشكل أفضل؟ إن لم يكن عند الإنسان الأول سوى بضع كلمات لإيضاح قصده بشكل أفضل أهذا يعني أن مشاعرنا أكثر تعقيدًا من الإنسان الأول؟ إذًا فلماذا كانت أمانويل تستخدم كلمات معدودة؟
أدخلت أمانويل عنصرًا غاضبًا إلى الجملة الجديدة التي كانت تتألف من كلمات متكررة. فجأة رفعت صوتها وكأنها كانت آخر محاولة لها فصرخت: «انزل إلى الأسفل!». ثم خفضت صوتها وأعطته نبرة تضرع: «أرجوك». ثم أضافت نبرة اعتذار:«سامحني». ثم وعد وخداع: «أعدك». وبعد لحظة تغير ترتيب هذه الألحان، فحذفت بعض الكلمات وأكدت على بعضها الآخر أكثر. لم يكن المهم تنوع الكلمات بل المطالب المختلفة التي كانت تمر خلال ذهن أمانويل وتبينها في قالب الكلمات، وبالتالي، يا للأمور التي بينتها أمانويل وراء هذه الكلمات!
الأشياء التي كانت تبينها ولم أكن أنا أفهمها. والأشياء التي كانت تبينها ولم يكن جان يفهمها!
- أرجوك. أرجوك.
شعرت بألم فظيع في مثانتي. تناولت فنجان شاي ووقفت أمام النافذة، لم يكن هناك مفر. لحسن الحظ لم يكن هناك أي أثر للمرأة في البناء المقابل والتي تنظر في المرآة التي تخفيه. فأفرغت الفنجان من النافذة. ولكن مثانتي كانت وكأنها تضخمت لتصبح بحجم جسدي فملأت كوب الشاي عدة مرات وأفرغته حتى استطعت أن أتمدد على سريري بارتياح. ولكن في تلك اللحظة ندت أصوات في الممر دلت على انفراج العقدة الدرامية للأحداث. في البداية سمعت صوت باب المرحاض ومن ثم اقتراب صوت الخطى المتعبة المختلطة والمبهمة. وكل ذلك ضمن شهيق بكاء أمانويل: «سامحني. سامحني. أعدك».
حين انعطف صوت وقع الخطى في السلالم فتحت الباب واسترقت النظر بهدوء. رأيت أمانويل تقف على الدرج وقد لفت يدها حول خصر جان وهي تقول له: «أعدك، أعدك».
في الليلة الماضية حملت الريح نافذة غرفتي معها وقبل نصف ساعة كنت قد رأيتها على الأرض في الفضاء الصغير أمام المرحاض. لم أكن أفكر باستحالة هذا الأمر بل كنت أفكر في إعادتها إلى مكانها وإلا فستأتي طيور القمري غدًا وعندها سيكون ذلك عقابًا مجددًا. فانطلقت بسرعة. كان باب المرحاض مفتوحًا بالكامل وزجاج النافذة على الأرض أيضًا. فحملته لكن حين أردت الذهاب خطرت لي فكرة مقلقة. ألقيت نظرة على الزجاج وعلى إطار نافذة المرحاض الخالي. لم يكن قلقي بلا سبب. فوضعت الزجاج على الأرض وحدقت في الإطار الخالي مرة أخرى: لم يختر جان هذا المكان عبثًا! أخرجت نفسي من إطار النافذة الخالي. كان الارتفاع يسبب الدوار. التفتت المرأة التي تعيش في البناء المقابل وهي واقفة أمام المرآة ونظرت إلي. فنزلت بسرعة.
***
- انزل! انزل!
ظننت أنني أرى كابوسًا. ولكنه كان حقيقيًا. لم تمض نصف ساعة على ذهابهما حتى عاد جان وأمانويل ثانية إلى نقطة البداية:
- انزل! انزل!

٢

منذ مدة تنبأ الفلكيون بوقوع تفجيرات هائلة في كوكب جوبيتر. وفي حال اصطدام إحدى شظايا التفجيرات بالأرض فستمحى كلمة «غدًا» وكلمة «دائمًا» من المعجم البشري إلى الأبد، هذا في حال إن بقي أحد من البشر. لم تترك تلك الضربات المرعبة التي تهز بناء إريك فرانسوا شميت الذي يتكون من ستة طوابق مجالًا للشك بأن أحجار جوبيتر تنهال على رؤوسنا.
نهضت فزعًا وفتحت الباب. كان باب غرفة فريدون مفتوحًا على مصراعيه. وكان هو بقامته الطويلة وعضلاته المفتولة ولحيته الكثيفة التي تشبه لحى الآلهة اليونانية مشغولًا بتكسير جذع شجرة سميكة بالفأس. ومع كل ضربة من فأسه كان يهز كل ذرة من الهيكل الخشبي للبناية فيتصاعد غبار أموات القرون الماضية من خلال شقوق أرضية البناء الخشبية في الهواء. وفي الموقد الجداري لغرفة فريدون كانت هناك عدة قطع من الخشب تحترق بنار صغيرة ويتصاعد منها الدخان. كانت هناك ثلاثة أزواج من العيون في محيط الغرفة المظلم تقريبًا تحدق في. ومن بينها كانت عينا بروفت المشتعلتان التان يمكن تميزهما بسهولة.

كان ســاعدا بروفت المفتولان يرتفعان وينزلان بســرعة، ومن خلال الدخان وذرات الغبار كنت أرى أشــباح مونتســكيو ودانتن وروبسبير وجان جوريس المضطربة تتجول في الجو غاضبة من يوم البعث الذي أتى في غير وقته. جعلني ضيق التنفس أن أبدأ بالسعال. حين رآني فريدون التفت واعتذر. أغلقت الباب واتجهت بسرعة إلى المطبخ.
كانت أعواد البخور التي وضعها حواريو بروفت مثل أعلام الانتصار فوق باب جميع الغرف تحترق وتنبعث منها في الجو رائحة حادة تحبس الأنفاس.
كلا، لم تكن هناك حاجة إلى انفجار في كوكب جوبيتر من أجل تدمير الأرض. يكفي وجود أشخاص يخلطون بين أرضية الخشب لغرفة السقيفة والباحة الواسعة لفيلا.
وقعت عيناي على الإصدار الجديد لصحيفة الحائط لبنديكت: «في هذه الأيام أصبحت قطتي فضولية ومن المستحيل أن أمنعها من الخروج من الغرفة. أشكر الجيران على حسن تفهمهم سلفًا».
في هذه الأيام أصبحت بنديكت نفسها فضولية وكان من المستحيل أن تمنع نفسها من الخروج من الغرفة، لكن ذلك لم يكن يحتاج إلى حسن تفهم الجيران.
منذ أن أخذ بروفت المصقلة من يد مريده فريدون وقرر أن يساعد بنديكت شخصيًا، أصبحت بنديكت تتردد في غرفة بروفت كثيرًا وأنا شخصيًا لم أكن متضايقًا من هذا الأمر.
على الرغم من أن علاقتهما كانت السبب في ذهاب وإياب بنديكت بين غرفتها وغرفة بروفت مئات المرات حتى الصباح، لم يتوقف صوت ارتطام سرير جان جوريس بالحائط للحظة واحدة وقطة بنديكت تموء خلف باب غرفتي.
لا، كنت راضيًا؛ مهما كان الأمر فإنه كان يخفف من عنفهما ويوقف منشار بنديكت ولعبة الكريات الزجاجية الخاصة ببروفت.
تناولت الإبريق كالعادة لكي أملأه بالماء، فانتبهت في تلك اللحظة إلى أن أحدهم مر بسرعة من جهتي اليمنى – نفس الجهة التي يقع فيها المرحاض – فظننت أن بروفت دخل ورائي بسرعة مثل ظلي. التفت مرعوبًا، لكن لم يكن هناك أحد. لابد أن التعب وعدم النوم المستمر جعلاني أتخيل. وضعت الإبريق تحت صنبور الماء، ولكن بينما كنت مطأطئًا رأسي شعرت بشخص يقف أمامي. رفعت رأسي فوقعت عيناي في مرآة المرحاض وأنا في حيرة على رجل عجوز. أفلت الإبريق من يدي فسقط على أرض المرحاض.
أخذنا نحدق ببعضــنا؛ لم أكن أعرفه. كان شــعر رأســه أبيض بالكامل وعيناه غائرتين، وأنفه أعوج وقد ظهر خطان متقاطعان بين تجاعيد جبهته العميقة، وفوق حاجبيه بالضبط؛ فله حاجبان كحاجبي الشيطان ذكراني بمفيستوفلس.
لمست وجهي ولمس هو وجهه. ثم لمست الخطين الشيطانيين فوق حاجبي وفعل هو الأمر نفسه.
لم أسر لرؤية انعكاسي أخيرًا. إن كانت نظرية الأشياء صحيحة ومرآتي تظهر الأشياء الجامدة فقط فإن ذلك لم يكن مدعاة للسرور مطلقًا. وفجأة ظهر شيء من وراء ثنايا عقلي الضبابي: كان هناك كرسي أمام باب الغرفة تمامًا، وطقم أسود مغبر، ورعشة خفيفة في الشفة العليا ويد مخبأة في جيب المعطف.
فتحت باب المطبخ واتجهت مسرعًا إلى غرفتي. كان باب غرفة فريدون مفتوحًا كذلك. امتد اللهيب المشتعل والدخان المتصاعد من الموقد من أعلى الباب إلى داخل الممر. كان فريدون جالسًا على الأرض يفرد عجينة بوساطة لوح خشبي وكانت هناك عيون ملتهبة حول الغرفة تحدق بالنيران.
دخلت إلى غرفتي. كان الكرسي لا يزال أمام الباب، وعند أرجل الكرسي على الأرض ثمة طقم أسود مغبر. كان القمري العجوز الذي كان جالسًا في الصباح على صف الكتب المليئة بالأتربة قد وقع على الأرض وقائمتاه مرفوعتان في الهواء.
لم أعد قلقًا على المرآة. ما الفرق إن كانت نظرية الأشياء صحيحة أم لا؟ وإن كانت مرآتي تظهر الأشياء الجامدة فقط – وإن كانت تظهرني فهذا يعني أنني ميت – ما الفرق بالنسبة لي؟ أو في الأساس ما الشيء الذي سيتغير؟
بلى، لقد تغير شيء. أنا الآن أحمل فوق جسدي رأسًا ليس لي. كان يعود لذلك الرجل العجوز الذي لا أعرفه.
جعلت رائحة الدخان غرفتي لا تحتمل، فقررت أن أعود ثانية إلى المطبخ. حين فتحت باب الغرفة كان فريدون يتناول الخبز من داخل النار بلوح خشبي وحين وقعت عيناه علي ابتسم لي ابتسامة بلهاء. طأطأت رأسي بسرعة وذهبت. في نهاية الممر كانت قطة بنديكت قد تقوقعت على نفسها وتبعتني بنظراتها. عندما التقت نظراتنا طأطأت رأسها مثل المذنبين.
دخلت إلى المطبخ، وفي اللحظة التي كنت أغلق الباب حينها خرج بروفت من غرفة فريدون وتسلل إلى غرفته مثل قطة.
كان هناك شيء يشبه وعاء صينيًا كبيرًا وقع وانكسر في غرفة بنديكت.

٣

مرة أخرى كنت واقفًا أمام المرآة. كانت الشفة العليا للرجل العجوز في المرآة ترتجف. ظهر خطان مثل حاجبي الشيطان على جبهته مما منحه هيبة الشيطان. كانوا يطرقون الباب وكنت أنا أحدق به، فجأة فتح شفتيه وقال شيئًا كان بالكاد مسموعًا فأصخت السمع.
- هذا أنا فريدون.
كانت أول مرة يطرق فيها فريدون باب غرفتي. فتحت الباب بحذر، فقدم لي صينية خبز طازج: «ليس فيه ملح».

كنت غاضبًا لأنه خلط غرفتي التي تقع في السقيفة بباحة واسعة لفيلا وأفسد علي نومي بسبب صوت ضربات الفأس المرعبة، ولا سيما أنه منذ مده طويلة كان ينثر الغبار والأتربة وقطع نفسي ببناء نصف الطابق الخشبي لهذا وذاك. ابتسمت ابتسامة جافة: «شكرًا، لدي خبز. اشتريته لتوي».

كنت أكذب. مضت عدة أيام لم أخرج فيها ولم يكن عندي ما آكله.

- إنه خبز منزلي. خبزته بنفسي.

شعرت للمرة الأولى أن ذلك الشاب المؤدب الذي كانت ترتسم ابتسامة حنونة في وجهه دائمًا له وجه حجري. ترددت؛ إن رددت يده فإنني كونت عدوًا بلا سبب وإن...

فقدم الصينية إلى الأمام: «لا تتردد».

ارتعش منخراي من رائحة الخبز الطازج. فأخذته.

حين أغلقت الباب، أخذت قطعة خبز ووضعتها في فمي بشغف؛ عندها سمعت صوتًا فاستدرت. رفع الرجل العجوز في المرآة حاجبيه الشيطانيين: «كلا!».

كانت قطة بنديكت تموء خلف الباب، وكنت قد تعودت على ما تفعله. كلما كانت بنديكت تذهب إلى غرفة بروفت كانت قطتها تأتي وتموء خلف الباب. لكن هذه المرة كان نوع موائها مختلفًا. كان في الضجة التي تصدرها من حلقها ثمة مغناطيس لا يقاوم شدني إلى خارج غرفتي. سمعت في الممر صوت ارتطام شيء بالحائط. ظننت أن بنديكت ذهبت مرة أخرى إلى غرفة بروفت وأن الارتطام هو صوت سرير جان جوريس بالحائط، إلا أن طنينًا غير عادي لشيء معدني رافق الارتطام ما أثار فضولي. حين فتحت الباب علقت اللقمة في حلقي. كان جسدا بنديكت وبروفت يتلويان بصمت مطلق في آخر الممر!

أغلقت الباب. ما علاقتي بالمكان الذي يفضلانه؟

دفعتني قوة لا مرئية لأفتح الباب ثانية. كان التواء جسديهما واهتزاز السلم الشديد خلف رأسيهما يبرق في الجو وليس الانحناءات الناعمة لحركات شهوانية تلك التي كانت خطوطًا سريعة متكسرة خشنة ابتدائية.

استرقت النظر ثانية. كانت بنديكت التي كان يظهر منها فقط جزء من شعرها الذهبي تحاول أن تقبض على شيء في الهواء. وانثنى السلم المعدني الموجود دائمًا في آخر الممر الذي كان بروفت يستعمله في السابق منصة لإلقاء الخطب. وبفتح أبواب الغرف وخروج الرؤوس المتحيرة والفضولية رفع بروفت يديه عن عنق

بنديكت وأمسك بالسلم، الذي كان على وشك السقوط، بين السماء والأرض.

استغلت بنديكت، التي أصبح لونها أسود، الفرصة وهربت إلى غرفتها. لحق بها بروفت بنظرة قاسية وتذمر متمتمًا بنبرة غاضبة: «يا عاهرة! يا عاهرة!».

وبعودة الرؤوس المتحيرة إلى داخل الغرف غاص الممر في هدوء لفترة.

كان سريرا الغرفة السادسة والثانية عشرة سريري الشيطان، وبوقوع تلك الحادثة لشيطان الغرفة السادسة شعرت أن دور شيطان الغرفة الثانية عشرة قد حان رغم كل جهودي الفاشلة للهرب من دائرة الموت الانتحارية. وبينما كنت أراجع الحوادث التي وقعت في هذا اليوم كنت أرى معنى واحدًا. «انزل، انزل». والآن إذ كنت أتمعن رأيت ثمة سرًا في هذا الكلام. كما في هجوم طيور القمري الوقح وضربات الفأس المرعبة، وسوء الفهم الذي حدث مع الشيطان في الغرفة السادسة، والدخان الذي كان يغطي الممر بالكامل وذلك الخبز الذي يذكرني بالعشاء الأخير.

لم يكن هناك مجال للبقاء. بدأت بتغير ملابسي حتى طرق الباب. وقفت بلا حراك. طرق الباب مرة أخرى فوقعت عيناي على السكين في المطبخ. وطرق الباب مرة أخرى بقوة أكبر. ظننت للحظة أنها زوجة ناطور البناء (كانا نادرًا ما ينظفان حتى يعلو صوت الجميع بالشكوى، وحين ينويان التنظيف كانا يخبطان المكنسة بالأبواب والجدران كأنهما يريدان أن يقولا: ليس الأمر كما يقول البعض، انظروا! ها نحن ننظف.) ولكنني تذكرت أنهما ينظفان في الصباح لا عند الغروب. سألت «من؟». فلم أسمع ردًا. حملت السكين. ازدادت طرقات الباب شدة. ألصقت أذني بالباب. كانت قطة بنديكت تموء مما جعلني أتأكد أنها هي. ولكن كيف لقطة أن... كيف يمكن؟

حين سمعت الصوت ثانية رأيت أن الطرقات تصدر من أسفل الباب. شعرت بالاطمئنان أنها القطة وليس بروفت. ولكن فكرة أن تطرق القطة الباب كان مخيفًا أكثر.

فتحت الباب بحذر. تسمرت في مكاني. كان كيس القمامة المركون قبل دقيقة أمام باب بنديكت قد مزق ورميت محتوياته مثل أمعاء حيوان تم اصطياده أمام باب مطبخي. أيعني هذا أن بنديكت صبت جام غيظها علي؟

فتحت شق الباب أكثر. كانت قطة بنديكت تمسك طرف علبة عصير فارغة بأسنانها وتنظر إلي منتظرة.

استرقت النظر. لم يكن هناك أحد في الممر. تركت القطة العلبة وأخذت تموء موبخة وهي تنظر إلي. بعد ترجمة تصريحات السيدة أمانويل حان دور كشف رمز مواء هذه القطة المتكرر الذي لا يتغير وقد أضيفت إليه الآن نبرة غاضبة.

كنت مثل الحصان الذي أحس بوقوع الفاجعة قبل أوانها، إلا أنني لم أصهل أو أضرب بحافري على الأرض بل نزلت عن الدرج بسرعة متجاوزًا عدة درجات بقفزات قليلة وقرعت جرس شقة الطابق الرابع.

بدخول إريك فرانسوا شميت تركني غابيك وركض لاستقباله، لكنه حين رأى عدم مبالاته شعر بالإحباط ودار حول نفسه مرتين بسبب اضطرابه، ثم ذهب باتجاه الأريكة الحمراء الباهتة التي تقع في الجهة اليمنى من غرفة الضيوف، وجلس عليها.
أخرج إريك فرانسوا من الكيس مجموعة فواتير أجور البيت، وأخذ يتفحص كل واحدة منها. لم أعرف ما أفعل. ولكي لا أزعجه بلا جدوى كان علي أن أقول له مباشرة إنني سددت إيجار بيتي منذ عدة أيام، لكن تصرفي هذا كان كمن يرمي نفسه في أعماق وادٍ لا يعرف له أحد قرارًا لأنه كان علي أن أذكر سبب قدومي ولم يكن ذلك بالأمر السهل.
كنت أعرف نقطة ضعف إريك فرانسوا شميت. في تلك الأيام حين كانت بنادق الأصوليين تطلق النار في الجزائر كنت قد رأيت غيظه وغضبه من المصائب التي تجري هناك. يكفي أن أقول إن إهداء الغرفة المجاورة لبروفت كان وكأنه يربي عدوه في بيته. لكنني كنت أعرف أن تلقين هذا الأمر لإريك فرانسوا شميت لم يكن سهلًا. في هذه المدة كان قد عرف الإيرانيين جيدًا. كان يعرف أنهم يكرهون بعضهم ولا يحتملون رؤية بعضهم. كل من كان يأتي إليه كان يفتن على الآخر. وكان كلانتر والسيد يتهمان بعضهما بالجاسوسية. كان كلانتر بنظر السيد جاسوسًا، لأنه كان يترك باب غرفته مفتوحًا في أغلب الأوقات؛ ومع أنه كان يحضر جميع اجتماعات المعارضين فإنه كان يسافر بحرية إلى البلاد. وبنظر كلانتر كان السيد جاسوسًا لأنه بالإضافة إلى ذهابه وإيابه إلى البلاد فإنه لم يكن يعمل، وكان يرتدي ملابس أنيقة ويتناول طعامه في المطاعم غالبًا.
بينما كان إريك فرانسوا شميت يقلب الفواتير كان يضع واحدة جانبًا بين الفينة والأخرى. تملكني الخوف: «أتكون كلها تعود إلي؟».
فابتسم لي ابتسامة مرة وكأنه أدرك خوفي:«مضت سنة لم يدفع فيه إيجار منزله!».
- من؟
- ميلوش، لا أعرف لماذا لا يعود وقد أصبحت بلاده الآن «جنة»!
فقط أحد أحفاد ولتر يمكن أن يكون شيوعيًا ويؤجر غرفته للاجئ هرب من بلاد شيوعية وذلك بأجر بخس. ولكن ولتر نفسه لم يستطع تحمل أن يتأخر دفع الإيجار سنة كاملة، أما إريك فرانسوا شميت فتحمل! وذلك مع أنه كان يصر على معتقداته بتعنت وكان يعتقد أن انهيار النظام الشيوعي خيانة كبرى ومؤامرة من قبل العالم الرأسمالي.
كانت مشاهدة كومة فواتير ميلوش التي لم تدفع وسماع تصريحات إريك فرانسوا شميت الأخيرة بمثابة ضربة مهلكة ومفاجأة.
قلت لنفسي: «حين يتحمل شخص رغم تعلقه بالشيوعية ميلوش إلى هذا الحد فلا بد أنه سيفعل الأمر نفسه مع بروفت».
نهضت. فقال إريك فرانسوا شميت بينما كان يقلب الفواتير: «لا أستطيع إيجادها، لا مشكلة». وأخذ يكتب فاتورة جديدة.
جلست مذهولًا على الكرسي. لقد ذهبت سدى كل جهودي من أجل ألا تقع عيناي على أنفه الغريب والتفكير ليلًا ونهارًا من أجل إثارة فتنة مؤثرة. لا بأس، سأدفع إيجار هذا الشهر للمرة الثانية.
لم تحتمل ماتيلد الصمت الثقيل المخيم على الجو: «لقد أصبح الجو باردًا».
تعلقت بقطعة الخشب كيفما اتفق لكي أسحب نفسي من أعماق المستنقع الذي كنت أغرق فيه: «أجل، لقد أشعل جاري موقده الجداري!».
- لماذا؟
- من أجل أن لا يدفع فاتورة الكهرباء.
يا للحماقة! كنت أحاول بغباء أن أجعل من جملة ماتيلد ذريعة لأجر الحديث إلى أحداث بروفت؛ وبما أن الأمر تم ذكره أجبت بحيث يبدو جسدي هو من قرر أن ينسى كل شيء وليس ماتيلد. وكأن ذلك الدخان الذي غطى الممر وطعم الخبز الطازج الذي التصق بجدار فمي أصبح مثل رائحة أموات دهنية عفنة منذ آلاف السنين لم تكن متعلقة بالأمس بل كانت ذكرى ضائعة في كهف في التاريخ السحيق.
وضع إريك فرانسوا شميت الفاتورة أمامي، نهضت ماتيلد: «الغرفة مظلمة، دعني أشعل الضوء».
وحتى أجد سبيلًا للنجاة أو على الأقل ذريعة أخذت أنقل يدي بين جيوب معطفي وأثناء تلك الحركة السريعة العصبية من جيب لآخر شعرت فجأة ببروز دفتر الصكوك، الذي ظهر مصادفة في جيبي الخلفي. شعرت بنظرة إريك فرانسوا شميت تراقبني من وراء إطار النظارات المعدني من أعلى بروز لحمتي طرفي أنفه مثل ماسورة بندقية مصوبة نحوي.
ومثل مذنب فتح قبضته مستسلمًا أخرجت دفتر الصكوك. حرك إريك فرانسوا شميت نظارته: «تسعمائة وتسع وستون فرنكًا وست وثلاثون سانتيمًا».
وقعت عيناي على أنفه الذي كانت تهتز غدتان لحميتان في جانبيه. حين رآني صامتًا أحمر وجهه خجلًا: «لقد أضيف مصروف تمديدات البناء لثلاثة أشهر إلى مبلغ الإيجار».
قامت ماتيلد التي كانت قد أشعلت الضوء وهي على وشك الجلوس: «هل تريد أن أحضر قلمًا؟».
ونهض غابيك الذي كان متمددًا على الأريكة قليلًا. أصاخ السمع وحدق بي!
كان قلم إريك فرانسوا شميت على الطاولة. كتبت الصك ونهضت. فانطلق غابيك الذي كان يشتم ورائي.
وقفت قرب الباب لأودعهم. قفز غابيك ووضع خطمه في مؤخرتي.

أغلق الباب ورائي. كانت رجلاي ترتجفان. أمسكت السياج. لم أكن قد وصلت إلى الدرجة الأولى حتى جمد ظل العقاب الكبير في أعلى السلالم كل عروق جسدي.
صدر صوت جرس كنيسة «سانت بول» برنات متتابعة مليئة بالعظمة.
رفعت رأسي. كان بروفت ينتظر عند آخر درجة!

٥

حين قال فاوست مورناو أن السيد لم يعش طويلًا أشفقت عليه. صحيح أن ألاعيبه كانت تؤذيني بشدة لكن دود الخل منه وفيه. وكنت تؤذيني البلاهة أكثر من أي شيء آخر، ومع أنني كنت أعلم أن الذكاء موهبة شيطانية كان الأذكياء يسحرونني دائمًا. كان السيد يمتلك ذكاءً استثنائيًا. حين كنت أعرفه على أحدٍ ما كان يحاول بشكل كامل وغير محسوس أن يسحب كل معلوماتي عنه كما يفعل المحلل النفسي الماهر. وكان يرتقي في نظر الذي يتحدث معه إلى مستوى إنسان عليم بأسرار النفس. كان أكبر خطأ للسيد بأنه لم يفهم أكبر عيوبي: ذلك بأنني أنا أيضًا منحت موهبة شيطانية. حين يأتي أحدٌ لرؤيتي كنت أدرك بنظرة واحدة كل ما كان يدور في ذهنه.
لقد ذكرت أن هذا أكبر خطأ لأنه لم يكن ذا نفع لي بل كان سبب انزوائي. بمجرد أن أفهم هدف الشخص الذي أتحدث معه كنت أسأم من سماعه ويطير تفكيري إلى مكان آخر.
كان الأمر كذلك مع السيد؛ مع هذا الفرق فإن السيد كان يتمتع بشخصية كتاب خيالية تمامًا كتبتها منذ عدة سنوات. كان يتابع حياته المستقلة من دون أن يبالي لأمري. كانت مهارته في اللعب وقدرته على ابتكار أساليب جديدة تثيراني. كنت أسمح له بالقيام بألاعيبه لأعرف إلى أي حد يمكن للإنسان أن يغوي وإلى أي مدى يدور رأس القلم على الورق.
لم تكن ألاعيبه هي ما تؤذيني. حين كان يكذب ليغطي على هدفه الرئيس كنت أشعر أن حصانه يتحرك ثلاث خانات في ثلاثة أو أربع خانات في اثنين بدلًا عن ثلاث حركات في اثنين. عندها كان يحين دوري للعب! ومن بين الكم الهائل للمعلومات الصحيحة التي كنت أعطيه إياها كنت ألقنه معلومات لم يكن فيها وجه من الصحة. كنا في حالة عراك ليس في رقعة الشطرنج فحسب بل في الحياة اليومية أيضًا. كان يحرك الحجر لغرضٍ ما، وكنت أتظاهر بعدم فهم نيته وأعطيه هدية مميتة!
مع ذلك كله لم يكن ذلك وقت أسف. لقد وضع فاوست مورناو إصبعه على نقطة كانت تعد منذ البدء لغزًا بالنسبة لي. سألت: «ماذا حصل بين رعنا والسيد ليلة الحادثة؟».
- ما علاقتي بذلك؟ لقد كنتم أنتم الثلاثة تخدعون أنفسكم!
قال ذلك وتناول الغليون من رفيقه الملاصق له وسحب نفسًا قويًا منه: «أنتم الإيرانيون لم تعودوا تعتقدون بالليلة الأولى للقبر. حتى عندما تصلون إلى هنا! نحن نطرح عليكم سؤالًا خاصًا فتخبرونا بقصص تافهة». ثم استدار إلى رفيقه الملاصق له وسأله: «هل غيرت تبغك؟».
أجاب رفيقه الذي اختفى ثانية من مكان قريب: «إن الأسعار ترتفع يومًا بعد يوم».
- ستكسد البضاعة وتبقى عندهم!
قال ذلك ورمى الغليون إلى رفيقه وراءه. ثم نهض من مكانه واستدار إلي: «حسنًا يا صاحب السعادة! ليس لدينا ما نفعله هنا». إن ذنبك مؤكد وإن لم تكن تريد الاعتراف فهذا شأنك. إن روحك قذرة وستنزل درجتك لكي تتطهر!».
في طفولتي كنت قد سمعت عن الكلب الضخم من أصحاب المعرفة. وكالعادة فكرت بأسوأ وضع: «أو يكون»...
- كلا، اطمئن إنه شمر تمثل بصورة كلب ضخم.
يا للحماقة! لقد كان يدرك أفكاري التي لم أقلها بعد. لقد كنت طوال هذه المدة أخفي أشياء كانت بنظري تؤدي إلى ضرري. صرفت نظري عن الدفاع وأخذت أفكر بالمساومة: «كما تعلمون، فإن مصير الكلاب في بلادي قاتم بالإضافة إلى أن البلدية مؤخرًا...».
- مم تخاف؟ أتخاف أن يرمي مأمورو البلدية لحمًا ملوثًا لتأكله؟ أنت تفعل أي شيء ليقتلك شخص آخر! فأنت تنقصك الجرأة!
كان قد طعنني في الصميم بكلامه. لقد طال نزاعي مع ظلي كثيرًا حتى عندما تخلصت من شره أصبحت
معتادًا على الصراع، وأصبح الصراع سبب ومعنى وجودي. ولاسيما أنني الآن أحمل رأسًا على جسدي لم تكن غرابته أقل من غرابة ظلي معي.
حين اتضح بهجوم بروفت على السيد أنني مصاب برهاب الجار الملاصق لي، بدأت التلاعب بذهنه عن طريق الإيحاء. كنت أعلم أنه يجلس طوال الليل يمارس اليوغا والتأمل بانتظار ملاك الغيب، فضبطت صوتي مع الأصوات السماوية وأخذت أنشد؛ بدأت بالقصائد التي اختيرت بدقة شيطانية بشكر وتقدير ونوع من التشجيع:
أراد مدع أن يأتي ليتفرج على السر
أتت يد الغيب وصدت صدر الأغيار
ثم كنت أجهز أرضية فلسفية:

أنا لست الأسد لأقاتل العدو
بل يكفيني أن أجابه نفسي بنفسي
ثم كنت أبث موسيقى مناسبة. على الأغلب «بينك فلويد» ولا سيما مقطوعة «الجانب المظلم من القمر». وحين يصبح الجو ملائمًا كنت أفتح مكاشفة يوحنا وأقرأ:
«أعلم بأعمالك ومشقتك وصبرك وأنك لا تستطيع تحمل الأشرار وأولئك الذين يعتبرون أنفسهم رسلًا وهم ليسوا كذلك، وقد اختبرتهم ووجدتهم كاذبين* أعلم بأعمالك ومكان سكنك وأن سرير الشيطان هناك وأنك تحفظ اسمي جيدًا ولم تنكر الإيمان بي، ولا حتى في الأيام التي قتل فيها انطيباس الشهيد الأمين بينكم في مكان الشيطان* أعلم بأعمالك ومحبتك وخدمتك وإيمانك وصبرك وأعلم أن أعمالك الأخيرة أكثر من أعمالك الأولى. وحين عزف الملاك الخامس رأيتُ نجما سقط على الأرض وأعطي له مفتاح حفرة الهاوية* وفتح بئر الهاوية وتصاعد من الحفرة دخان مثل دخان التنور العظيم وأصبح الجو والشمس مظلمين بسبب الدخان* ومن بين الدخان أتى جراد على الأرض ومنحوا قوة مثل قوة العقارب الأرضية* وقيل لهم ألا يؤذوا نباتًا أو عشبة أو شجرة بل بأولئك الناس الذين لا يحملون ختم الله فوق رؤوسهم* وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولن يجدوه وسيتمنون الموت ولكن الموت سيهرب منهم* ورأيت عُقابًا وسمعته يطير في كبد السماء ويقول بصوت عال الويل، الويل الويل لأهل الأرض».

٦

حرك إبهامي قدميه داخل الجوارب الجميلة ذات الحياكة الإيرانية وفتح دفة الكتاب...
... فرك إريك فرانسوا شميت الغدتين اللحميتين في طرفي أنفه؛ تلكما الغدتان اللتان تضخمتا بحيث لا تسمحان له أن يراني بسهولة متمددًا وسط أرجل الكراسي. وكان عليه مد رقبته وإحناء رأسه. دبَّ ألم قديم تحت جلده، وانقبض إبهاما قدميه من الألم، فأغلق الكتاب. كان هناك شيء يدور في جمجمته مثل نقطة بدون فرجار لدائرة تطير. نهض فجأة وقرر أن يذهب في الليلة نفسها باحثًا عن السيد.
بمجرد أن جاء السيد عصرًا استطاع أن يأخذ موافقة إريك فرانسوا شميت لاستلام غرفة ميلوش الذي عاد إلى بلده. بعد غرفتي وغرفة بروفت كان هذا التل السادس الذي يقوم بتسخيره.
بعيد اعتقال بروفت أخذوا فريدون إلى مشفى نفسي، لأنه كان يعتقد أن بروفت أطعمه فضلا عن دمي لاقطا يجعله يسمع أصوات كل الغرف. كان موقد بنديكت يصدر صوتًا في هذه الأواخر؛ فأخذ بتلابيبها «إلى من تبرقين؟»؛ ومرة أيضًا استل السكين أمام السيد وهدده «لماذا تشتمني؟». لكن السيد كان قد استغرب بشدة: «أنا جالس في غرفتي أعزف على كماني، متى قمت بشتمك؟». وكان فريدون قد صفر النغمة التي كان السيد يعزفها لعدة دقائق وقال: «حسنا، هذا فقط! لماذا تكرر دائما بآلتك: كان فريدون القواد بطلا في الباستيل؟».
بعد أن ذهبت زوجته سرعان ما عثر كلانتر على شقة مكونه من غرفتين، ولكنه عاد مرة أخرى إلى منزله وحياته (في الليلة التالية التي قال فيها فريدون لزوجة كلانتر: «يا أختي، هذه الجدران رقيقة، وحين تتألمين سيهتز جسمي كله أيضًا!»، كانت المرأة قد أغلقت حقيبتها، وهي تنزل من الدرج قالت: «لم أعد أحتمل دار المجانين هذا! تعال معي في أي وقت توفر فيه مكان ومنزل مناسب.»)
منذ شهر وحتى الأمس وطوال الوقت كان يأتي صوت المعول من الطابق السادس. كان السيد، الذي قد امتلك الآن غرفة فريدون من جانبه، وغرفتي وغرفة بروفت في الجهة المقابلة أيضًا، فتح الجدار الفاصل بين هذه الغرف وهو يتقدم في طريق تحقيق أحلامه بسرعة من دون أي مانع. كان حسابه صحيحًا. كان إريك فرنسوا
شميت بأذنيه ثقيلتي السمع لم يكن يسمع شيئًا مما يجري في الطابق السادس. كان وريثه الوحيد ابنه الذي كان يجلس في الطابق الرابع ذاته أمام الوالد، وكان بوهيميًّا معتزلًا الناس حيث لا يقلق السيد بشأن المستقبل. مع هذا، لقد واجه الآن، هو الذي كانت أحلامه فتح جدران كل هذه الغرف، عقبتين رئيسيتين: كان قد تقدم من جانبه حتى الغرفة رقم خمسة لكن الغرفة رقم ستة التي كانت ملكًا لبنديكت تبدو غير قابلة للاحتلال. وكانت العقبة الثانية أكثر جوهرية؛ تم فتح الجدار بين غرفتي وغرفة بروفت ولكن الدرجات العريضة كانت تمنع فتح ثقب بين غرفتي ومطبخي. فاضطر إلى الالتفاف حول العقبة الأولى أي غرفة بنديكت وبالاستيلاء على الغرفة رقم سبعة التي كانت تعود لكلانتر استمر في التقدم، وحتى يعثر على حل لتحقيق حلمه القديم، أقنع نفسه الآن بأن يركب مرآة في كل جهة باتجاه الجدار الأخير للغرف بحجم الباب تمامًا. المرآة التي كان ركبها سابقًا على جدار غرفته كانت بالحجم نفسه تمامًا. الآن، حين يلتقط كمانه ويجلس بين المرايا الموازية، يتراءى له أن هذه الغرف المتداخلة في مرمى بصره ليست ممتدة حتى نهاية الممر فحسب بل حتى الأبدية. عند ذلك كان يغلق عينيه ويعزف المقطوعة ذاتها التي يظن فريدون أنها هجاء له. ولكن في الحقيقة، كان النشيد الذي ألفه السيد للانتصارات الأخيرة وسماه «فتح الباستيل».
كانت بنديكت منذ اليوم الذي نفقت فيه قطتها تضيف كل يوم أصيصًا جديدًا إلى الأصص الموجودة داخل الممر. كان الانتصار هو قانون اليوم لهذا الطابق. السيد من الداخل وبنديكت من الخارج. لدرجه أنه رصُ الآن الأصص ليس فقط على جانبي الردهة ولكن

على جانبي الدرج وحتى الطابق الخامس. كانت الهمسات الصادرة من العدد القليل لسكان الطابق السادس تقول: «دفنت بنديكت قطتها في ذلك الأصيص الكبير في الجانب الأيمن من غرفتها». الآن عندما يحل الغروب، تبدو بنديكت وهي تمسك بشمعة مضيئة كشبح يتجول حائرًا في السلالم وهي تبحث عن قطتها: «ميكو؛ أين أنت يا ميكو؟».

كانت جذور نباتات بنديكت قد خرجت من تحت الأصص وتقدمت في مسارها بين ثغرات الآجر الأحمر لأرضية الردهة والخشب المتهالك للسلالم. كانت أوركسترا الأخشاب التي قطع صوتها، تصدر بين الفينة والأخرى أصواتًا جافة وهشة تسمع بين الحين والأخر بسقوط جذور نباتات بنديكت في الخشب والحجر والاسمنت.

عند عتبة الباب، فقد إريك فرنسوا شميت توازنه، فوضع يده على ذراع مقعد كي لا يقع. انقلب الكرسي إلى الوراء وسقط هو على الأرض. أوصلت نفسي له بقفزة من بين أرجل الكراسي. كانت نظارته المعدنية ذهبية اللون مرمية إلى جانب. غشى عيني انعكاس الضوء على عدستي النظارة المكسورتين. غيرت اتجاهي. كانت على وجهه سكينة عميقة وكأنه نائم منذ ألف عام، والآن تلكما الغدتان الكبيرتان على طرفي انفه لم تكونا غريبتين فقط وإنما تضيفان إليه هيبة وجلالًا إلهيين أثريين. مثل الخيزران الذي يمرره رجال قبائل «البولينزي» بين منخري أنوفهم ليعطيهم هيبة الصقور العملاقة. من وضعية نومه اطمأننت، ورقدت فغدًا لن يكون هناك أي سوط.

يسير خيط دم رفيع من أنفه، ويدور حول الغدة في جهة اليمين كتل بعيد.

أفكر في نافذة ما، في فتاة ترتدي فستانًا كتانيًّا أبيض. تنحني الفتاه وتقذف بالكرة داخل الزقاق، تتقدم الكرة في منحدر الزقاق على الأوراق اليابسة. تبتعد، وتصطدم بالجدران يمين الزقاق تارة وبالجدران يسارها تارة أخرى. تتبع الفتاة بنظرها مسار الكرة المائل المعوج. كان الزقاق خاويًا، تتوقف الكرة في مكان بعيد. تتقدم وتتراجع بجانب سور بستان عده مرات، وتحشر في جذع شجره وتتوقف.

أوصلت نفسي إلى غرفة النوم سريعًا، وبدأت بالقفز على السرير. استدارت ماتيلد: «أغلق النافذة يا غابيك فالجو بارد».

أغلقت النافذة بكل مشقة. نهضت ماتيلد وسرت قبلها صوب الجثة. توقفت مستغربة عند إريك: «لماذا رقد هنا؟». وبعد لحظة تنسى ما أدهشها، وبمجرد أن تقع عيناها على خيط الدم المتدلي من أنف إريك ينتابها القلق؛ وبعد دقيقة تنسى ما تسبب في قلقها. وكأن بصرها وقع عليه توًا سألت نفسها: «لماذا رقد هنا؟». وتنسى سؤالها بعد لحظه ومرة أخرى تقع عيناها على خيط الدم وبعد لحظة...

أعود، وأتمدد بين قواعد الكراسي. غدًا سوف أنام بارتياح. غدًا عندما أتبول على الدرجات، سوف تنسى ماتيلد. غدًا سوف تنسى ماتيلد أنني فعلت ذلك أيضًا يوم أمس. في كل مرة تعتقد أن هذا العمل يحصل للمرة الأولى، وتوًا. «توًا».

رضا قاسمي

وُلد الروائي والمسرحي والموسيقار رضا قاسمي عام ١٩٤٩ في مدينة أصفهان، وهو من جذور جنوبية، وبدأ التأليف في السابعة عشرة من عمره بمسرحية «الكسوف»، كما دخل بها عالم الإخراج، ثم تبعها بإخراج مسرحية «تعال واذهب» لصموئيل بيكيت. كما أنه اتجه لدراسة الموسيقى الإيرانية التقليدية في كلية الفنون الجميلة.

وفي عام ١٩٧٢ كتب مسرحية «رسائل بلا تاريخ منّي إلى عائلتي وبالعكس»، وأخرجها بعد سنتين ولاقت نجاحًا كبيرًا. وفي عام ١٩٧٦ نال الجائزة الأولى لمؤسسة التلفزيون الإيراني عن مسرحيته «حين أصبح ضحاك ملكًا على العالم»، وبعد ذلك تفرغ للتأليف الموسيقي لثلاث سنوات. وفي عام ١٩٨٢ لم يسمح له جهاز الرقابة بإخراج مسرحيته «السائرون نيامًا»، وكتب وأخرج بعدها مسرحيات «ماهان الدءوب» و»لغز ماهيار المعماري»، وفي عام ١٩٩٧ هاجر إلى فرنسا، نظرًا للمضايقات التي تعرَّض لها، وصعوبة إخراج أعماله المسرحية، وأسس هناك فرقة «مشتاق» الموسيقية، وأحيى عشرات الحفلات في أوروبا والولايات المتحدة، حيث قام بتأليف المقطوعات والمشاركة في تنفيذها، كما قام بتأليف مسرحيتين أخريين «الدور لك يا مركوشوي» و»التمثال»، وثلاث روايات «بئر بابل»، «الأوركسترا الليلية»، و»تراتيل الحملان»، ومجموعة «التلعثم» الشعرية، وعدة قصص قصيرة في منفاه الباريسي؛ وقد ترجمت أعماله إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والبولندية والتركية.

***

نشرت روايته المعروفة «الأوركسترا الليلية» عام ١٩٩٦ في الولايات المتحدة، وسرعان ما نالت استحسانًا لدى القراء في المهجر وأصبحت علامة فارقة للرواية الإيرانية، ما جعله ينشرها عام ٢٠٠٢ في إيران. ونظرًا للإقبال الشديد طبعت ١٥ مرة وفازت بعدة جوائز مثل جائزة مؤسسة كلشيري، جائزة أفضل رواية السنة، وجائزة أفضل رواية إيرانية خلال العقد الأخير...

يتلاعب قاسمي في روايته هذه بالزمان والمكان، ويضع القارئ بين عالمين: الواقعي والمجازي، ليتهيأ له أنه في عالم الماليخوليا. وتدور أحداث الرواية في الممر الطويل للطابق السادس في مبنى باريسي يعود إلى شيوعي عجوز يستأجرها إيرانيون منفيون وبعض الفرنسيين، يشتركون بالكآبة والعدمية لأن الملاذ الجديد لم يمنحهم هوية جديدة، ويزعجهم إحساس بكونهم غير منتمين ومن دون جذور. وفي خضمّ هذا يدخل مستأجر جديد يغير الأجواء... لأنه يهدد حياتهم.